

قطع ذلك النزاع كله مرض الهادي الذي لم يمهله إلا ثلاثة أيام. وقد اتهم الناس أمه الخيزران بسمه لما كان منه من غل يدها عن المداخلة في أمر الملك ونهى القواد والرؤساء عن الدخول إليها وانضم إلى ذلك ما أولع به الهادي من الإساءة إلى الرشيد وإرادة عزله أو قتله وكان الرشيد براً بها وقد يؤكد ذلك أنها أرسلت إلى يحيى والهادي مريض تعلمه أن الرجل لمآبه وتأمره باستعداد لما ينبغي فاستعد يحيى للأمر أكمل استعداد وهياً الكتب للعمال من الرشيد بوفاة الهادي وأنه قد ولاهم الرشيد ما كانوا يولون. فلما مات الهادي نفذت الكتب على البرد وكانت وفاته بعيساباذ.

### ٥ - الرشيد

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي وأمه أم الهادي ولد بالري (سنة ١٤٥)، ولما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الأمور. جعله أمير الصائفة (سنة ١٦٣) و (سنة ١٦٥) وفي (سنة ١٦٤) ولاه المغرب كله من الأنبار إلى أطراف إفريقية فكانت الولاة ترسل من قبله وفي (سنة ١٦٦) جعله أبوه ولي عهد بعد الهادي وفي (سنة ١٦٩) وهي السنة التي توفي فيها المهدي أراد أن يقدمه على الهادي لما ظهر من شجاعته وعلو شأنه فحالت منية المهدي دون ذلك.

بويج الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادي في (١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ - ١٤ سبتمبر سنة ٧٨٦) وسنه (٢٥ سنة) ولم يزل خليفة إلى أن توفي في ثالث جمادى الآخرة (سنة ١٩٤ - ٢٤ مارس سنة ٨٠٨)، فكانت مدته (٢٣ سنة) وشهرين و (١٨ يوماً) وكان سنه إذ توفي (٤٨ سنة).

وكان يعاصره في الأندلس الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢) ثم هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠) ثم الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦).

وفي المغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (١٧٢ - ١٧٧) وهو أول المتغلبين من البيت الإدريسي ثم ابنه إدريس (١٧٧ - ٢١٣).

ويعاصره في فرنسا شارل الكبير المعروف بشارلمان (٧٦٧ - ٨١٤).

ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين السادس، وكانت تدبره لصغره أمه أريني (٧٨٠ - ٧٩٧) ثم استبدت بالملك من (سنة ٧٩٧) إلى (سنة ٨٠٢) ثم خلعت وخلعها نقفور (٨٠٢ - ٨١١).

### الحال لعهد:

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة إلى أفخم درجاتها صولة

وسلطاناً وثروة وعلماً وأدباً ارتفعت فيه حضارة الدولة العلمية والأدبية والمادية إلى أرقى درجاتها مما سنفصله بعد، ووصل ترف الأمة في حضارة الدولة وغيرها من الحواضر إلى حد يؤذن بقرب الهبوط، وكان في عهد الرشيد من كبار الرجال من تزدان بهم الممالك من رجال الإدارة والحرب، فعظمت الهيئة في الداخل والخارج وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقي كما سنبين ذلك تله مفصلاً، ونحن الآن ذاكرون الحوادث الكبرى التي كان لها أثر في مستقبل الأمة.

### الطالبون:

كان الطالبون شغل بني العباس الشاغل فإنهم كانوا لا يزالون متطعمين إلى نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تحين الفرصة الملائمة لإقامة دولتهم وكان بنو العباس من أجل ذلك، لا يأمنون جانبهم لكن الرشيد في أول ولايته أراد أن يستميل قلوبهم بشيء من الإحسان إليهم وكان أول ما فعله معهم أن رفع الحجر عمن كان منهم ببغداد وسيرهم إلى المدينة ما خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن علي وكان أبوه الحسن فيمن أشخص. ومع هذا الذي بدا منه لم يتركه الطالبون على سجيته فكان من أول الخارجين عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وهو من الناجين من وقعة فخ التي كانت في عهد الهادي ذهب إلى بلاد الديلم، فاشتدت شوكتها وقوي أمره ونزع إليه الناس من الأمصار والكور، فاغتم الرشيد لذلك وترك شرب النبيذ ثم ندب إلى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد في خمسين ألفاً ومعه صناديد القواد فسار سمت يحيى فكاتبه ورفق به واستماله وحذره وأشار عليه وبسط أمله وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وحملت إليه فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فرسه وعظم موقعه عنده وكتب الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل عليه بذلك إلى يحيى فقدم وورد به الفضل ببغداد فلقبه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقاً سنوية وأنزله منزلاً سرياً بعد أن أقام بمنزل يحيى بن خالد أياماً وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك إلى غيره وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه وبلغ الرشيد الغاية من إكرام الفضل لذلك وسنبين خاتمة أمره في حديث نكبة البرامكة ولم يترتب على خروج يحيى هذا انفصال شيء من جسم الخلافة الإسلامية.

### إدريس بن عبد الله:

كان إدريس بن عبد الله بن الحسن ممن هرب من وقعة فخ، وهذا أخو يحيى سار إلى مصر

ومنها اتجه إلى بلاد المغرب الأقصى فالتفت عليه براهبة أوربة فكون هناك أول خلافة للعلويين وهي دولة الأدارسة، وكان نزوله بمدينة ويلي (سنة ١٧٢)، وكانت بيعته في تلك السنة، ولما بلغ هارون أن أمر إدريس قد استقام ببلاد المغرب وكثرت جنوده وفتح بلاد تلمسان وأنه عازم على غزو إفريقيا هم أن يرسل إليه جيشاً ولكن عدل عن ذلك لبعث الشقة واختار رجلاً داهية اسمه سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ وطلب منه أن يحتال في قتل إدريس وزوده مالاً وطرفاً يستعين بها على أمره فسافر الرجل ووصل إلى إدريس مظهراً النزوع إليه متبرئاً من الدعوة العباسية فقبله إدريس واختص به وأعجب بحديثه ولما انتهز الفرصة سمه إما في طيب وإما في سنون وفر هارباً، فمات إدريس (سنة ١٧٧) ولم يكن له ولد إلا أمة كانت حاملاً فانتظروا وضع حملها فوضعت ولداً ذكراً سمي إدريس على اسم أبيه وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الأدارسة بالمغرب رغم أنف الرشيد.

بذلك تم خروج إقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية وهما بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية الأموي وبلاد المغرب الأقصى مع تلمسان على يد إدريس بن عبد الله. كان الرشيد بسبب هذه الحوادث يخاف الطالبين جداً ومن اتهم من الناس بالميل إليهم عاقبه أشد العقوبات وأخذ موسى بن جعفر المعروف بالكاظم إلى بغداد فأقام بها إلى أن مات وهو السادس من أئمة الشيعة الإمامية.

### الخارجون عليه من غير العلويين:

لم يكن اضطراب الدولة وزعزعة الأمن ناشئاً من العلويين وحدهم، بل كان هناك فريق من الأمة ينعي على الخلفاء استبدادهم وخروجهم عما توجه الأوامر الشرعية من كتاب الله وسنة نبيه وقد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على علي بن أبي طالب إلى زمن الرشيد إلا أن خلفاء بني أمية قد أخفتوا صوتهم بما كانوا يجردون لهم من الجيوش الجرارة على يد أمهر القواد كالمهلب بن أبي صفرة وغيره ومع ذلك فإنهم لم يقدروا على إفناء روحهم الثورية من الأمة، فكان لا يزال يخرج منهم خارجة متى ظهر فيهم ذو مقدرة وكفاءة لخوض الحروب. وقد اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولي بأس شديد أعادوا تاريخ أسلافهم في عهد بني أمية بعد أن كانت نيرانهم قد خبت مدة طويلة وأشهر هؤلاء الخوارج ذكراً وأعظمهم أثراً الوليد بن طريف الشامي الشيباني كان بطلاً شجاعاً يقيم بالجزيرة بنواحي نصيبين خرج على الرشيد (سنة ١٧٨) ففتك بإبراهيم بن خازم بنصيبين ثم مضى منها إلى أرمينية ثم رجع إلى الجزيرة (سنة ١٨٩) واشتدت بها شوكته وكثرت أتباعه بعد أن هزم للرشيد جيوشاً عدة فاهتم الرشيد بأمره جد الاهتمام ورأى أن يوجه إليه من ربيعة من يمكنه القيام في وجهه فوقع اختياره على يزيد بن يزيد الشيباني وهو ابن أخي معن بن

زائدة فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويمآكره متبعاً في ذلك طريقة المهلب بن أبي صفرة مع قطري بن الفجاءة، وكانت البرامكة منحرفين على يزيد فقالوا له: إنه يراعيه لأجل الرحم وإلا فشوكة الوليد يسيرة فوجه إليه الرشيد كتاباً مغضباً وقال: ولو وجهت أحداً من الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنتك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ليعثن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين فلفي يزيد الوليد، ولما اصطف جيشاهما وشبت الحرب ناداه: يا وليد ما حاجتك إلى التستر بالرجال ابرز لي، فقال: نعم والله، فبرز الوليد وهو يرتجز:

أنا الوليد بن طريف الشاري فمورة لا يصطلي بناري  
جوركم أخرجني من داري

وبرز إليه يزيد ووقف العكران فلم يتحرك منهما أحد فتطاردا ساعة وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكنك يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه وكانت هذه الواقعة بالحديثة على فراسخ من الأنبار (سنة ١٧٩) ثم وجه يزيد برأس الوليد وبكتاب الفتح إلى الرشيد. ومن أطف الرثاء ما قالته الفارعة أخت الوليد:

على جبل فوق الجبال منيف  
وهمة مقدام ورأس حصيف  
كأنك لم تجزع على ابن طريف  
ولا المال إلا من قنا وسيوف  
معاودة للكريين صفوف  
مقاماً على الأعداء غير خفيف  
من السردي خضراء ذات رفيف  
وسمر القنا ينكرانها بألوف  
فإن مات لا يرضى الندي بحليف  
فدينك من فياننا بألوف  
شجا لعدو أو نحا للضعيف  
ولالأرض همت بعده بـرجوف  
ودهر ملح بالكرام عنيف  
وللشمس لما أزمعت لكوف  
إلى حفرة ملحودة وسقيف

بـل نهاكي رسم قبر كأنه  
تضمن محدياً عد ملياً وسودداً  
فيا نجر الخابور مالك مورقاً  
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى  
ولا الذخر إلا كل جرداء صلد  
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم  
ولم تستلم يوماً لورد كرية  
ولم سمع يوم الحرب والحرب لأقح  
حليف الندي ما عاش يرضى به الندي  
فقدناك فقدان الشباب وليتنا  
وما زال حتى أزهق الموت نفسه  
ألا يا لقوم للحمام وللبي  
ألا يا لقومي للنوائب والردى  
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى  
ولليث كل الليث إذ يحملونه

ألا قاتل الله الحشا حيث أضمرت      فإني بك أوداه يزيد بن مزيد  
فإن يك أوداه يزيد بن مزيد      فرب زحوف لفها بزحوف  
عليه سلام الله وقفاً فإنني      أرى الموت وقاعاً بكل شريف

### خطر المشرق،

وضع الخطر على الدولة من قبل المغرب فقد انتفضت أطرافها بخروج عبد الرحمن بن معاوية وإدريس بن عبد الله وليس الخطر على هذا الطرف بأقل أثراً من الخطر على الطرف الآخر وهو مشرق الدولة وراء نهر جيحون فقد حصل ما يؤذن بخطر مستقبل من جراء والي خراسان.

استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد في تولية علي بن عيسى بن ماهان خراسان فأشار إليه ألا يفعل، فخالفه الرشيد وولاه إياها، فلما شخص إليها ظلم الناس وجمع ماله جليلاً ووجه إلى الرشيد بهدايا لم ير مثلها من الخيل والرقيق والثياب والأموال فقعد الرشيد بالشماسية على دكان مرتفع حين وصل إليه ما بعث به علي بن عيسى وإلى جانبه يحيى بن خالد فقال له: هذا الذي أشرت ألا نوليّه هذا الثغر فقد خالفناك فيه فكان في خلافك بركة وهو كالمزح معه إذ ذاك فقال يحيى: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك أنا وإن كنت أحب أن أصيب في رأبي وأوفق في مشورتي فأنا أحب إلي من ذلك أن يكون رأي أمير المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمي ومعرفته فوق معرفتي وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن فيه ما يكره أمير المؤمنين، وأسأل الله أن يعيده ويعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكروهه. قال: وما ذاك؟ قال: أحسب أن هذه الهدايا ما اجتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف وأخذ أكثرها ظلماً وتعدياً ولو أمرني أمير المؤمنين لأنيته بصفتها الساعة من بعض تجار الكرخ، قال: وكيف ذاك؟ قال: قد ساومنا عوناً على السقط الذي جاءنا به من الجوهر وأعطيناه به سبعة آلاف فإبى أن يبيعه فأبعث إليه الساعة بحاجبي بأمره أن يرده إلينا لتعبد فيه نظرنا فإذا جاءنا به جحدناه وربحنا سبعة آلاف ألف: ثم كنا نفعل بتاجرين من تجار الكرخ مثل ذلك وعلى أن هذا أسلم عاقبة وأستر أمراً من فعل علي بن عيسى في هذه الهدايا بأصحابها فأجمع لأمير المؤمنين في ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعي وأيسر أمر وأجمل جباية مما جمعه علي في ثلاث سنين. فوفرت في نفس الرشيد وحفظها وأمسك عن ذكر علي بن عيسى فلما عاث علي بن عيسى بخراسان وتر أهلها وأخذ أموالهم واستخف برجالهم كتب رجال من كبارها ووجهاتها إلى الرشيد وكتب جماعة من كورها إلى قراباتهم وأصحابهم يشكون سوء مسيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه ونسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به فدعا يحيى بن خالد فشاوره في أمر علي بن عيسى وفي صرفه، فأشار عليه بيزيد بن مزيد فلم يقبل مشورته. وكان قيل للرشيد: إن علي بن عيسى أجمع على خلافك فشخص إلى

الري من أجل ذلك فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقية من جمادى الأولى (سنة ١٨٩)، ثم سار إلى الري ثم إلى قرماسين، ثم عاد إلى الري فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه علي بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطرف، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم، فرأى الرشيد منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يقال فيه فرضي عنه وورده إلى خراسان وخرج وهو مشيع له.

عاد علي بن عيسى إلى مرو ناقماً على كل من يظن أنه تكلم فيه بسوء فأذى الناس وأخذ منهم الأموال ظلماً. وحصل في تلك الظروف أن أعلن العصيان رافع بن ليث بن نصر بن سيار وجده نصر من قد عرفتم في التاريخ الأموي. أما رافع فيظهر أنه كان ممن يتخذ دين الله هزواً ولعباً ويتضح ذلك من السبب الذي من أجله ثار. كان يحيى بن الأشعث الطائي تزوج ابنة عمه وكانت ذات يسار ولسان فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند، فلما طال مقامه بها وبلغها أنه اتخذ أمهات أولاد التمتت سبباً للتخلص منه وبلغ رافعاً خبرها فطمع فيها وفي مالها ففدس إليها من قال لها إنه لا سبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله وتحضر لذلك قوماً عدولاً وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تتوب فتحل للأزواج ففعلت ذلك وتزوجها رافع وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث فرفعه إلى الرشيد فكتب إلى علي بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعاً ويجلده الحد ويقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيداً على حمار حتى يكون عظة لغيره فدرا عنه سليمان بن حميد الحد وفعل به العقوبات الأخرى وحبسه فهرب من الحبس ولحق بعلي بن عيسى طالباً أمانه فلم يجبه علي إليه، وهم بضرب عنقه فكلمه فيه ابنه عيسى بن علي وجدد طلاق المرأة وأذن له في الانصراف إلى سمرقند فانصرف إليها فوثب بعاملها سليمان بن حميد فقتله فوجه إليه علي بن عيسى ابنه عيسى وكان أمره قد استفحل بسمرقند وبايعه الناس وطابقه من وراء النهر فلقي رافع عيسى بن علي وهزمه. فأخذ علي في فرض الرجال والتأهب للحرب. أما رافع فإنه غلظ أمره وكاتبه أهل نسف يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن علي فوجه صاحب الشاش في أتراكه وقائداً من قواده فاتوا عيسى بن علي فأحذقوا به وقتلوه ولم يعرضوا لأصحابه، وكان علي بن عيسى في ذلك الوقت ببلخ، فلما سمع ما أصاب ابنه خرج عنها حتى أتى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولي عليها وكان عيسى ابنه قد دفن في بستان داره ببلخ أموالاً عظيمة قيل: إنها كانت ثلاثين ألف ألف درهم، ولا يعلم بها علي بن عيسى ولا أطلع عليها إلا جارية كانت له، فلما شخص علي إلى بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة فبلغ الرشيد الخبر فقال: خرج من بلخ بغير إذني وخلف مثل هذا المال وهو يزعم أنه قد أفضى إلى

حلي نسائه فما أنفق على محاربة رافع . في ذلك الوقت، تبينت له خيانة الرجل وجبنه وسوء سياسته لأهل ولايته فعزم على خلعه ومصادرته فأحضر هرثمة بن أعين وهو قائد شجاع بطل ، فقال له :  
 إني لم أشاور فيك أحداً ولم أطلع على سري فيك وقد اضطربت علي ثغور المشرق وأنكر أهل خراسان أمر علي بن عيسى إذ خالف عهده ونبذوه وراء ظهره وقد كتب يستمد ويستجيش وأنا كاتب إليه فأخبره أنني أمدته بك وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة وما يطمئن إليه قلبه وتتطلع إليه نفسه وأكتب معك كتاباً يخفي فلا تفضسه ولا تطلعن فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامثله ولا تجاوزه إن شاء الله وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى علي بن عيسى يخفي ليتعرف ما يكون منك ومنه وهون عليه أمر علي فلا تظهرنه عليه ولا تعلمنه ما عزمت عليه وتأهب للمسير وأظهر لخاصتك وعامتك أنني أوجهك مدداً لعلي بن عيسى وعوداً له . وكان كتابه لعلي بن عيسى مبدوءاً بهجر وفيه توبيخ وتقريع له على مخالفته وإعلام له بما أمر هرثمة أن يفعله معه . أما عهده لهرثمة فهو :

(هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه نجر خراسان وأعماله وخراجه أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته وأن يجعل كتاب الله إماماً له في كل ما هو بسيله فيحل حلاله ويحرم حرامه ، ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولي الفقه في دين الله وأولي العلم بكتاب الله أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشده . وأمره أن يستوثق من الفاسق علي بن عيسى وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصلح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين فإذا استظف ما عندهم وقبلهم من ذلك نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يرده إليه ، فإن ثبت قبلهم حقوق لأمر المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطاها بأدنى أدب تلفت نفوسهم وبطلت أرواحهم فإذا خرجوا من حق كل ذي حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطأة وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك فإني آثرت الله ودينني على هواي وإرادتي فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك ودبر في عمال الكور الذين تمر بهم في صعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمر يريهم وظن يرعيبهم وأبسط من آمال أهل ذلك اشغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما يرضي الله منك وخليفتك ومن ولاك الله أمره إن شاء الله . هذا عهدي وكتابي بخفي وأنا أشهد الله وملائكته وحمله عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيداً) وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته .

شخص هرثة وقد اختار من ثقات رجاله ولاية على كور خراسان مع وصيتهم بكتمان أمرهم إلى اليوم الذي عينه لهم حتى إذا وصل مرو خرج علي بن عيسى لمقابته لأن هرثة لم يدع مجالاً للريبة إلى قلبه، فلما دخلا المنزل أطلعه على كتاب الرشيد إليه وأول كلمة منه تنبىء عن يقينه فأسقط في يده وبعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيده وكذلك قيد أولاده وكتابه وعماله ثم ذهب هرثة إلى المسجد الجامع فخطب وبسط من آمال الناس وأخبرهم أن أمير المؤمنين ولاء ثغورهم لما انتهى إليه من سيرة الفاسق علي بن عيسى وما أمره به فيه وفي عماله وأعوانه وأنه بالغ من ذلك ومن إتصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وأمر بقراءة عهده عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء. ثم صادر جميع ما يملكه علي بن عيسى هو وأولاده وكتابه وأرسل كل ذلك إلى الرشيد وقالوا إنه حمل على (١٥٠٠ بعير) وأرسل هرثة إلى الرشيد يخبره بما صنع. ولما استوفى ما عند علي بن عيسى أرسله هو وأولاده في الأغلال إلى بغداد.

وقد اهتم هرثة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد إلى الذهاب بنفسه لحربه فشحخص يريد خراسان في ربيع الآخر (سنة ١٩٣) وهي السفرة التي مات فيها بطوس فلم يصل إلى ما أراد وبقي رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال.

### وزراء الرشيد:

أول وزراء الرشيد يحيى بن خالد بن برمك. ولما كانت أسرة البرامكة من أعظم الأسر تاريخاً وأشهرها اسماً في صدر الدولة العباسية أجبنا أن نشرح أوليتها.

### أسرة البرامكة:

تنسب هذه الأسرة إلى جدها برمك وهو من مجوس بلخ، وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران، فكان برمك وبنوه سدنة له، وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم يعلم هل أسلم أو لا؟ لما جاءت الدعوة العباسية خراسان، كان خالد بن برمك من أكبر دعائها وزعمائها وكان ذا صفات عالية أهله للسيادة ورفعة القدر في صدر الدولة حتى استورره أبو العباس السفاح بعد هلاك أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال، فكان مدير أمره غير أنه لم يكن يسمى وزيراً واستمر على ذلك حياة أبي العباس، فلما ولي أبو جعفر أبقى خالداً في منصبه مدة ثم ولاء فارس بتدبير أبي أيوب المورياتي الذي تولى الوزارة بعده فأقام فيها مدة، ثم انكسرت عليه جملة من المال فحمل إلى بغداد وطولب بالمال، ذكر الطبري في حوادث (١٥٨) أن أبا جعفر ألزمه ثلاثة آلاف ألف ونذر دمه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك فاستعان في

ذلك أصدقاءه فأعانه كثير منهم حتى جمع في يومين ألفي ألف وسبعمائة ألف درهم. وفي غد ذلك اليوم الذي أصيب فيه بهذه المصيبة ولاة المنصور ولاية الموصل، وكان ممدوح الولاية حسن السيرة. قال أحمد بن محمد بن سوار الموصلي: ما هبنا قط أميراً هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشد عقوبته ولا نرى منه جبرية، ولكن هيبة كانت له في صدورنا والياً على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالد (سنة ١٦٣) في أوائل خلافة المهدي.

أما يحيى بن خالد فكان واحد الدنيا علماً وأدباً وفضلاً ونبلاً وجوداً رباه أبوه فأحسن تربيته، وكان مولده (سنة ١٢٠)، فكانت سنة حين جاءت الدولة العباسية اثنتي عشرة سنة فترسى في كنف الدولة وكان عضد أبيه في ملماته وشدائده وقد اختاره المنصور لولاية أذربيجان (سنة ١٥٨)، قال له: أردتك لأمر مهم من الأمور واخترتك لشغل من الثغور وكانوا لا يولون ثغورهم إلا من كانت ثقتهم به عظيمة فسار في ولايته سيرة أبيه في الموصل واستمر بها حتى مات المنصور.

وفي (سنة ١٦٣) اختاره المهدي ليكون كاتباً ووزيراً لابنه هارون فكان يدبر أمره وهارون لا يتادبه إلا بيا أبي، وذلك لأن زوجة يحيى أم ابنه الفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون وخرج معه في غزوة الصائفة (سنة ١٦٣) وكان على أمر العسكر ونفقاته وكتابه والقيام بأمره. وكان في تلك الغزوة الربيع بن يونس الحاجب غازياً عن المهدي فكان الذي بين الربيع ويحيى على حسب ذلك، وكان هارون يشاورهما ويعمل برأيهما ولما ندب المهدي يحيى لذلك المهم قال له: إني قد تصفحت أبناء شيعتي وأهل دولتي واخترت منهم رجلاً لهارون ابني أضمه إليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوعدت عليك خبرتي له ورأيتك أولى به إذ كنت مربيه وخاصته وقد وليت كتابته وأمر عسكره.

ولما ولي المهدي ابنه هارون المغرب كله (سنة ١٦٤) من الأنبار إلى إفريقية أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك، فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها واستمر على حاله تلك إلى أن مات المهدي ولما ولي الهادي أباه على حاله مع هارون حتى إذا خطر ببال الهادي أن يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى فإنه هو الذي جراه على الاستمساك بحقه الذي منحه إياه أبوه المهدي، وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع فقال له يحيى: لا تفعل فقال: ليس يترك لي الهنيء والمريء فهما يسعاني وأعيش مع ابنة عمي، وكان هارون يجد بأم جعفر وجداً شديداً فقال له يحيى: وأين هذا من الخلافة ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع ومنعه من الإجابة فسعى إلى الهادي يحيى. وقيل له: إنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده يحيى بن برمك فأرسل إليه الهادي، وقال له: لم تدخل بيني وبين أخي وتفسده

علي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، من أنا حتى أدخل بينكما؟ إنما صيرني المهدي معه وأمرني بالقيام بأمره فقمتم بما أمرني به ثم أمرتني بذلك فانتبهت إلى أمرك. ثم قال له لما كلمه في أمر الخلع: يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال: صدقت ونصحت ولي في هذا تدبير، ومما قاله في هذا: يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر أسأل الله ألا نبغعه وأن يقدمنا قبله أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم. قال: والله ما أظن ذلك. قال: يا أمير المؤمنين أفتأ من أن يسمو إليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك، فقال له: نبتهي يا يحيى. قال: وكان يقول ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى وقال له: لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك، أما كان ينبغي أن تعقد له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي له، ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به أتيت به بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده فقبل الهادي قوله. ولكن يظهر أن الذي كان يحرك الهادي إلى خلع الرشيد مما لا تمكن مقاومته فاشتد غضبه منه وضيق عليه فقال يحيى لهارون استأذن في الخروج إلى الصيد، فإذا خرجت فاستبعد ودافع الأيام، ففعل ذلك هارون وخرج إلى قصر مقاتل فأقام به أربعين ليلة حتى أنكر الهادي أمره وعنه احتباسه وجعل يكتب إليه ويصرفه فتعمل عليه حتى تفاقم الأمر وأظهر شتمه وبسط مواليه وقواده ألتهم فيه وكان الذي يتوب عن يحيى والرشيد بالباب الفضل بن يحيى فكان يكتب إلى أبيه بكل ما يحدث.

ولما لم ير الهادي يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من إكرام ولا إنقطاع ولا صلة بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكف عنه ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتل موسى علته التي مات فيها فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ودبره أحسن تدبير فقلده الرشيد وزارته ووزارة تفويض حيث قال له: قلدتك أمر الرعية وأخرجته من حقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ما ترى، ودفع إليه خائمه وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة      فلما ولي هارون أشرق نورها  
بيمن أمين الله هارون ذي الندى      فهارون واليهما ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها وكان يحيى بما أوتيه من كريم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة غرة في دولة الرشيد وكان قبلة الآمال ومتجع الرواد. وقد ضم إليه الرشيد في (سنة ١٧١) خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان.

وكان يحيى أربعة من الأولاد كلهم سادة نجب وهم الفضل وجعفر ومحمد وموسى بنو يحيى .

فأما الفضل فهو أكبر الإخوة ولد أواخر (سنة ١٤٨) قبل ولادة الرشيد بأيام وقد أرضعت كلاً منهما أم الآخر، ولما شب كان لأبيه يحيى كما كان يحيى لأبيه خالد، ولما ولي أبوه وزارة الرشيد كان الفضل ينوب عنه في جلائل أعماله ولما ولد محمد الأمين جعله الرشيد في حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أباً .

وفي (سنة ١٧٦) كان خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن ببلاد الديلم فأهم أمره الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحيى فولاه كور الجبال والري وجرجان وطبرستان وقومس وديباوند والرويان ولم يزل يحتال في أمر يحيى حتى استنزله من معقله بأمان من غير أن يريق في ذلك نقطة دم إلا حسن السياسة، وقد عرف الرشيد ذلك للفضل فبلغ الغاية في إكرامه ومدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال مروان بن أبي حفصة :

ظفرت فلا شلت يد برمكية  
على حين أعياء الراتقين النمامه  
فأصبحت قد فازت يدك بخطة  
وما زال قدح الملك يخرج فائزاً  
وقال أبو ثمامة الخطيب:

للفضل يوم الطالقان وقبله  
ما مثل يوميه اللذين نواليا  
سد الثغور ورد ألفة هاشم  
عصمت حكومته جماعة هاشم  
تلك الحكومة لا التي عن ليها  
عظم النبا وتفارق الحكمان

وفي (سنة ١٧٨) ولاء الرشيد خراسان وثغورها فأحسن السيرة بها وبنى بها الرباطات والمساجد . وغزا ما وراء النهر فخرج إليه ملك أشروسنة وكان ممتنعاً، ويقال إنه اتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية، وجعل ولاءهم له وإن عدتهم بلغت (٥٠٠٠٠٠ رجل) وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة .

ما الفضل إلا شهاب لا أقول له عند الحروب إذا ما تأفل الشهب

حام على ملك قوم غر سهمهم  
 أمست يد لبني ساقى الحجيج بها  
 كتائب لبني العباس قد عرفت  
 أثبت خمس مئين في عدادهم  
 يقارعون عن القوم الذين هم  
 إن الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق  
 ما مريوم له من شد مثزره  
 كم غاية في الندى والبأس أحرزها  
 يعطي الله حين لا يعطي الجواد ولا  
 ولا الرضا والرضا لله غايته  
 قد فاض عرفك حتى ما يعادله

ولما قدم من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف فوصلهم وأحسن جوائزهم وكان رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين بأطرافها وذلك (سنة ١٧٩)، وكان الفضل في جميع الأعمال التي أسندت إليه كفوءاً تزيهاً، وكان من أكثر البرامكة كرمياً، وكان أكرم من أخيه جعفر، وكان الناس يسمونه في بدء أعماله بالوزير الصغير وامتد السيرة مرفوع الرأس في المهمات حتى كانت التكية الآتي ذكرها.

وأما جعفر فهو ثاني أولاد يحيى وكان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر، وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر وكان من ذوي الفصاحة والمشهورين باللمن والبلاغة وكان أبوه قد ضمه إلى أبي يوسف يعقوب القاضي حتى علمه وفقه، وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل. وقال الرشيد يوماً ليحيى: ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفرأ بذلك فقال يحيى: لأن الفضل يخلفني قال: فضم إلى جعفر أعمالاً كأعمال الفضل، فقال يحيى: إن خدمتك وتمادتك يشغلانه عن ذلك فجعل إليه أمر دار الرشيد، فسمي بالوزير الصغير، وقال له يوماً: قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى، فاكتب أنت إليه فكتب يحيى إلى الفضل: قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن نحول الخاتم من يمينك إلى شمالك فأجابته الفضل: قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في

أخي وما انتقلت عني نعمة صارت إليه ولا غربت عني رتبة طلعت عليه فقال جعفر: لله در أخي ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منة العقل وأوسع في البلاغة ذرعه.

وفي (سنة ١٧٦) ولاة الرشيد مصر زيادة على ماله من الأعمال في دار السلام فولأها من قبله عمر بن مهران.

وفي (سنة ١٨٠) هاجت العصابة بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها فاغتم الرشيد لذلك فعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له: إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا فقال له جعفر: بل أليك بنفسي فشخص في جملة القواد والكراع والسلاح فأصلح بين الناس وقتل زواقيهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً فعادوا إلى الأمن والطمأنينة وأطفأ تلك الثائرة وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال منصور النميري:

فهذا أوان الشام تخمد نارها  
عليها خبت شهبانها وشرارها  
وفيه تلافى صدعها وانجبارها  
تراضى به قحطانها وتزارها  
دموع لهام الناكثين انحدارها  
نجوم الثريا والمنايا ثمارها  
بها الريح هال السامعين انبهارها  
حجاكم طويلات المنى وقصارها  
أناكم وإلا نفسه فخيأرها  
وصولاته لا يتطاع خطأرها  
وصعدته والحرب تدمى شفاؤها  
فعدك مأواها وأنت قرارها  
ولم تدن من حال ينالك عارها  
من الدهر أعناق فأنت جبارها  
ملمات خطب لم ترعه كبارها  
يؤمل جدواها ويخشى دمارها  
أناها حياها أو أناها بوارها  
وغيث وإلا فالدماء قطارها  
أخو الجود والنعمة الكبار صغارها

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة  
إذا جاش موج البحر من آل برمك  
رماها أمير المؤمنين بجعفر  
رماها بميمون النقية ماجد  
تدلت عليهم صخرة برمكية  
غدوت تزجى غاية في رؤوسها  
إذا خفقت راياتها وتجرست  
فقولوا لأهل الشام لا يسلبنكم  
فإن أمير المؤمنين بنفسه  
هو الملك المأمول للبر والنقى  
وزير أمير المؤمنين وسيفه  
ومن تطوى أسرار الخليفة دونه  
وفيت فلم تغدر لقوم بذمة  
طيب بإحياء الأمور إذا التوت  
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له  
لقد نشأت بالشام منك غمامة  
فظوبى لأهل الشام يا ويل أمها  
فإن سالمرا كانت غمامة نائل  
أبوك أبو الأملاك يحيى بن خالد

كأين ترى في البرمكيين من ندى  
غدا من نجوم السعد من حل رحله  
عذيري من الأقدار هل عزماتها  
فعين الأسى مطروقة لفراقه  
ومن سابقات ما يشق غبارها  
إليك وعزت عصبه أنت جارها  
مخلفتني عن جعفر واقتسارها  
ونفسي إليه ما ينام ادكارها  
ولما شخص جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد له إكراماً وخطب جعفر أمامه خطبة جميلة  
استشفع فيها لأهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم.

وفي هذه السنة ولاء الرشيد خراسان ثم عزله عنها بعد عشرين ليلة وولاه الحرس وكان  
يخلفه في هذا العمل هرثمة بن أعين وهو من كبار فواد الدولة.

وفي (سنة ١٨٢) بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين  
وضمه إلى جعفر بن يحيى ليكون المدير لأمره، كما كان الأمين مع الفضل بن يحيى وقد جعل  
الرشيد الأمين والي المغرب كله والمأمون والي المشرق كله وكانت الولاية التي ترسل إلى الأقاليم  
من قبل ولي العهد.

وأما موسى بن يحيى، فكان أشجع القوم وأشدهم بأساً لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه  
الفضل وجعفر إلا أنه كان في تلك الدولة عاملاً سرياً وقائداً بأسلاً ولاء الرشيد الشام (سنة ١٨٦)  
لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التي ذهب فيها أخوه جعفر وضم إليه من القواد  
والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة، فلما ورد الشام أقام بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة  
واستقام أمرها فأنتهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام ورد الرشيد الحكم فيهم إلى يحيى بن خالد  
فعفا عنهم وعمما كان بينهم وأقدمهم بغداد. فقيل في موسى بن يحيى:

قد هاجت الشام هيجاً	يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها	بخيلسه وجنوده
فدانت الشام لما	أنسى بسنخ وحيده
هو الجواد الذي بذ	كل جود بجوده
أعداه جود أيه	يحيى وجود جوده
فجاء موسى بن يحيى	بطارف وتليده
ونال موسى ذرى المجد	وهو حور مهوده
خصصته بمدح يحيى	مشوره وقصيده
من البرامك عود	له فأكرم بعوده
حوروا على الشعر طوراً	خفيفه ومديده

وقد اتهمه علي بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب في اضطراب خراسان عليه وأعلمه طاعة أهلها لموسى ومحبتهم إياه وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلاخ إليهم للوثوب به معهم فوقر ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه، فلما قدح علي بن عيسى فيه أسرع ذلك في الرشيد وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له، فلما صار إلى الحيرة في حجه (سنة ١٨٧) وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس بن عيسى بن موسى فركبت أم الفضل بن يحيى في أمره ولم يكن الرشيد يردّها في شيء فقال: يضمه أبوه فقد رفع إلي فيه فضمه يحيى ودفعه إليه ثم رضي عنه الرشيد وخلع عليه.

وأما محمد بن يحيى، فكان سرياً بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة ما لإخوته كانت هذه الأسرة في عهد الرشيد غرة في جبين دولته جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاص، وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام، كما كانوا مبرزين في حلبة الجود والسخاء تهزهم الأريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضمن به الكرام حتى أنسوا الناس ذكر الأولين.

خدمت هذه الأسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد بن برمك من كبار دعائها وقوادها إلى هذه السنة (سنة ١٨٧) التي نسطر فيها أخبار نكبتها على يد الرشيد.

### نكبة البرامكة:

أولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم في تعرف أسباب إيقاع الرشيد بهم. لم يكن هذا العمل بدعاً في الدولة العباسية فإن للمنصور والمهدي سلفاً في ذلك، فقد أوقع المنصور بوزيره أبي أيوب المورياني قتله وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم وأوقع المهدي بوزيره أبي عبد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحسن سيرته ومع ما كان للمهدي من الولوع بالثاني حتى كتب للجمهور أنه اتخذ أخاه في الله. كل هذا قد سبق به الرشيد.

يرى المؤرخ أن طبيعة الملك الاستبداد أي يحب الملك فيه أن يكون ذا السلطان الذي لا يشارك والحوال الذي لا يقاوم واليد الطولى التي لا تضارعها يد وكبار الرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لا يقف عند حد في الانتفاع بتلك السابقة لهم، فلا يزالون يرتفعون حتى تتبّه إليهم أفكار الخلفاء بما يلقى إليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم فتدخل الغيرة في قلوب أولئك الخلفاء والغيرة بدء

الشعور بعيوب أولئك الرجال فلا تزال معانيهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة تعظم وحيثئذ يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الإيقاع بمن كان سيفه الذي لا ينبو في الخطوب إشفاقاً من هذا السيف أن يتقلب عليه فينقص منه ملكه الذي دونه كل شيء وليس هذا خاصاً بالرشيد والبرامكة بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه إلا قليلاً من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد في قلوب الناس وقلب السلطان وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر، لأنهم يتغلبون على ما في طبع الإنسان من عدم الوقوف عند حد في العظمة والتكاثر في الأموال على أن أبا عبد الله وزير المهدي مع نزاهته وبعده عما يوجب غير سلطانه جاءه أعداؤه من قبل ابنه فقالوا للمهدي: إنه زنديق فقتله المهدي فكان ذلك سبباً للوحشة بين المهدي ووزيره.

كان يحيى بن خالد هو القائم بأمر الرشيد أيام المهدي وكان الرشيد يدعوه يا أباي، وكانت أم الفضل بن يحيى ظئراً للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بن يحيى، فكان يحيى هو الذي يكفله ويقوم بتربيته من لدن ولد إلى أن شب. وهو الذي كانت له اليد الطولى في إخفاق المساعي التي بذلت لخلع الرشيد من ولاية العهد أيام الهادي، فلما تولى الرشيد قلده وزارته وزارة تفويض ثم ضم إليه وزارة الخاتم بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسي فاجتمعت له الوزارتان وأعانه في العمل أبناؤه إلا أن الشهرة وتباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جميعاً من الكفاية حتى روى القاضي يحيى بن أكثم قال: سمعت المأمون يقول: لم يكن كـيحيى بن خالد وولده أحد في الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة قال القاضي: فقلت: يا أمير المؤمنين، أما الكفاية والبلاغة والسماحة فتعرفها فيهم فـيـمـن الشجاعة؟ فقال موسى بن يحيى: وقد رأيت أن أوليه نغر السند.

ولم يكونوا في الاتصال بالرشيد على درجة واحدة، فكان يحيى صاحب المقام الأرفع وهو المدبر أمر المملكة وحاله في سنه وجماله قدره تبعه عما يدعو إليه الشباب من المنادمة وكان الفضل في الأخلاق مثله فلم يكن يخف على قلب الرشيد لتشبهه بأبيه حتى كان الرشيد قد عتب عليه وثقل مكانه عليه لتركه الشراب معه، فكان الفضل يقول: لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي ما شربته وكان مشغوفاً بالسماع. أما جعفر فكان أخف الجميع على قلب الرشيد، فكان لذلك يدخل في منادته حتى كان أبوه ينهائه ويأمره بترك الأنس به فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعو إليه ويقال إنه كتب إليه حين أعيته الحيلة فيه: إني إنما أهملك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا سوى لها. وقد كان يحيى قال للرشيد: يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك علي منك، فلو أعفيت واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتي وأمن لك علي. قال

الرشيد: يا أبت ليس بك هذا ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل. ومن أجل ذلك كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيماً جداً حتى كان يقضي أعظم الأمور فلا يرد له الرشيد قضاء.

رأهم الناس بعد هذا العز المتين والشرف الباذخ منكوبين على يد الرشيد، ابن يحيى وأخي الفضل وحبيب جعفر. فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الأنبار في آخر ليلة من محرم (سنة ١٩٧) بعد أوبة الرشيد من حجه وكتابته عهدي ولديه الأمين والمأمون - ثم جمعه مصلوب ببغداد على ثلاثة جوار ثم أحرق. ويحيى بن خالد وأبناؤه الباقون محبوسون. ورأوا مصادرة لكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق - ورأوا كتباً أرسلت إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم وأمرأاً بالنداء في جميع البرامكة أن لا أمان لمن أوامهم إلا محمد بن خالد بن برمك وولده وأهله وحشمه، فإن الرشيد استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة. رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والأوهام ناسيين ذلك لحادث فجائي حدث فغير قلب الرشيد هذا التغيير، وأداه إلى هذا العمل شأن الناس في الأعصار كافة إذا عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع.

نسب ذلك بعضهم إلى مجرد الملل والغيرة. وسئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال: واللّه ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد لهم، ولكن طالت أيامهم وكل طويل محلول، واللّه لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما رأوا مثلها عدلاً وأمناً وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان رضي الله عنه حتى قتلوهم، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بأمالهم دونه والملوك تنفس بأقل من ذلك فتعت عليهم وتجنى وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الإدلال خاصة الفضل وجعفر دون يحيى فإنه كان أحكم خيرة وأكثر ممارسة للأمر ولاذ من أعدائهم بالرشيد كالفضل بن الربيع وغيره فستروا المحاسن وأظهروا القبايح حتى كان ما كان.

ونسب ذلك بعضهم إلى حادثة يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي روينا حديث ذهابه إلى بلاد الديلم واستئزال الفضل بن يحيى إياه بأمان الرشيد - ذكر أبو محمد البيهقي وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن الحسن فلا تصدقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحجسه ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره فأجابه إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمداً ﷺ فوالله ما أحدثت حدثاً ولا آويت محدثاً فرق عليه وقال: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أوجد بعد قليل فأرد إليك أو إلى غيرك فوجه

معه من أداه إلى مأمنه وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاصة خدمه، فعلم الأمر فوجده حقاً وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بخبره وقال: ما أنت وهذا لا أم لك، فدل ذلك عن أمرى فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغاء فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال. قال: بحياتي. فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهنًا وأصحهم فكراً، فهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقتة وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده قال: نعماً فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان.

ونسب ذلك بعضهم إلى حديث العباسة بنت المهدي التي رواها الطبري عن زاهر بن حرب وتناقلها المؤرخون وزادوا عليه ونقصوا منها وهي حكاية مشهورة ونحن نريد أن نبين أن تكبة البرامكة ليست حادثة فجائية بل هي حادثة تقدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضاً.

كان من موالى العباسيين الفضل بن الربيع وقد قدمنا ذكر أبيه الربيع بن يونس في حياة المنصور والمهدي، ولم يكن للفضل في أول خلافة الرشيد شيء من نياحة الذكر، لأن الخيزران أم الرشيد كانت تمنعه أن يوليه شيئاً، ففي اليوم الذي توفيت فيه (سنة ١٧٤) دعا به هارون، فقال له: وحق المهدي إنني لأهم لك بالليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني أمي فأطبع أمرها فخذ الخاتم من جعفر وكان بيده نياحة عن والده فقال الفضل بن الربيع لإسماعيل بن صبيح الكاتب: أنا أجل أبا الفضل عن ذلك بأن أكتب إليه وأخذه ولكن أرى أن يبعث به. وهذه مجاملة سببها أن الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شيء فأحب أن يتخذ عندهم يداً حتى لا يتخوفونه وولى الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة ولايات أخرى.

في (سنة ١٧٦) حصلت حادثة يحيى بن عبد الله فاستنزل الفضل من معقله بأمان الرشيد فحضر إلى بغداد وأكرمه الرشيد، لكن الزمان لم يطل على هذا الإكرام، فإن الساعة رفعوا عن يحيى ما يريب وكان الرشيد يرتاب بأقل شيء فرقع إليه أن يحيى لا يزال يدعو إلى نفسه وإنما ينتظر الفرص وكان أكثر الناس سعاية في ذلك بكار بن عبد الله الزبيري وكان شديد البغض لآل أبي طالب، ويبلغ عنهم هارون ويسيء بأخبارهم فكان من وراء تلك السعائيات أن حبسه الرشيد وضيق عليه وحاول أن يقتله ولم يكن يمنعه إلا خيفة أن يقول الناس فيه شيئاً لما كتبه من كتاب الأمان الذي استنزل به يحيى فأراد أن يأخذ من العلماء قولاً في أن ذلك الأمان لاغ فأحضر أبا البخترى القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف، فأما محمد بن الحسن فإنه

قال له: ما تصنع بالأمان لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً وليس هذا الجواب موافقاً لغرض الرشيد ولذلك احتمل هذه الكلمة على محمد - وأما أبو البختري فقال: إن الأمان متقضى وأقبل يعدد وجوه نقضه، ولذلك قال له الرشيد: أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك فخرق الأمان.

ويظهر أن الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة ليسمى يحيى بن عبد الله عند الرشيد، لأن في قتله إذلالاً لمن كان السبب في استنزاله وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يساميهما لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سلطانهم والذي أوضح لنا أن الفضل بن الربيع هو الذي كان يحرك السعاة للسعي يحيى أن الرشيد لما كان يحاج يحيى نظر يحيى إلى الفضل بن الربيع وقال له: هذا والله من أفاتك.

كان المفهوم بعد ذلك أن يجتهد البرامكة في تخليص يحيى ففعل جعفر فعلته التي قدمنا ذكرها والرشيد وإن كان يحتمل لجعفر كثيراً من الإدلال لا يحتمل له هذا، لأنه متعلق بملكه - ومن الغريب ما ورد في هذه الحادثة من أن الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يتقرب أحوال جعفر حتى اختار من خاصة خدمه جاسوساً يعلم أخباره ويلقي بها إليه كانت هذه الحادثة سبباً للشواية بالبرامكة في أخص صفات الوزراء وهي الإخلاص لمملوكهم وذلك طعن متفرد. وقر في نفس الرشيد شيء من ذلك وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي وهي التهمة التي استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبي عبيد الله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة.

كان من الظاهر بعد ذلك أن تجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثالهم وأثرتهم وينفس عليهم ما صار إليه من عظيم الأموال وجلال المدح وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واستراب بهم وظن كل منهم في الآخر الظنون. روى بخيشوع الطيب عن أبيه جبريل قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه رداً ضعيفاً فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال: يا جبريل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك؟ فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك، قال: فما بالتا يدخل علينا بلا إذن؟ فقام يحيى فقال: يا أمير المؤمنين قدمني الله قبلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري حتى إن كنت لأدخل عليه وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذ قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك، قال: فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجهاً وعيناه في الأرض ما يرفع إليه

طرفه ثم قال: ما أردت ما تكره، ولكن الناس يقولون: قال جبريل: فظننت أنه لم يسبح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى.

وحدث محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبي جعفر قال: دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان إليه فقال الرشيد لمسرور الخادم: مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال: فدخل فلم يبق إليه أحد فأربد لونه قال: وكان الغلمان والحجاب إذا رأوه أعرضوا عنه قال: فكان ربما استقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالبحري إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً.

وحدث يعقوب بن إسحاق عن إبراهيم بن المهدي قال: أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها فقال: أما تعجب من منصور بن زياد قال: قلت له: في ماذا؟ قال: سألت: هل ترى في داري عيباً؟ قال: نعم، ليس فيها لبنة ولا صنوبرة، قال إبراهيم: فقلت له: الذي يعيها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين. قال: هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له قال: قلت: إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول له: يا أمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم فأين نفقاته وأين صلاته وأين النواصب التي تنوبه؟ وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك؟ وهذه جملة سريعة إلى القلب والوقف على الحاصل منها صعب. قال: إن سمع مني قلت لأمر المؤمنين: نعماً على قوم قد كفروها بالستر أو بإظهار القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي فوضعتها في رأس جبل، ثم قلت للناس: تعالوا فانظروا. وحدث زيد بن علي عن إبراهيم بن المهدي أن جعفر بن يحيى قال له يوماً: (وكان جعفر صاحبه عند الرشيد وهو الذي نربه منه) إني قد استريت بأمر هذا الرجل (يعني الرشيد) وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق لي منه فأردت أن أعتبر ذلك بغيري فكنت أنت فارمق ذلك في يومك هذا وأعلمني ما ترى منه قال إبراهيم: ففعلت ذلك في يومي.

فلما نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت إلى شجرة في طريقي فدخلتها ومن معي وأمرتهم بإطفاء الشمع وأقبل الندماء يمرون بي واحداً بعد واحد فأراهم ولا يروني حتى إذا لم يبق منهم أحد إذا أنا بجعفر قد طلع، فلما جاوز الشجرة قال: اخرج يا حبيبي قال: فخرجت فقال: ما عندك؟ فقلت: حتى تعلمني كيف علمت أنني ههنا؟ قال: عرفت عنايتك بما أعنى به، وأنت لم تكن لتصرف أو تعلمني ما رأيت منه وعلمت أنك تكره أن ترى وافقاً في مثل هذا الوقت وليس في طريقك موضع أستر من هذا الموضع فقضيت بأنك فيه ثم

قال: فهات ما عندك قلت: رأيت الرجل يهزل إذا جدت ويجد إذا هزلت قال: كذا هو عندي فانصرف يا يحيى.

من كل هذا يتبين أن النفور والريبة وقعت في قلب كل من الطرفين للآخر وتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يعث عليها إلا ما ركز في نفسه وأثبته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة وكان الرشيد يتحين الفرصة للإيقاع بهم ولا سيما جعفر لما كان منه من تخليص يحيى بن عبد الله وهذا دليل عدم الإخلاص للرشيد وللبيت العباسي وقد قام الفضل بن الربيع بما انتدب إليه خير قيام وشايعة في ذلك كثيرون وكانت زوجة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعفر لقيامه في أمر المأمون، فإنه هو الذي قام في ولايته العهد وجعله مناظراً لابنها الأمين وكاتوا يتخوفون من جعفر أن يكون سبباً في الإيقاع بين الأخوين إذا حانت منية الرشيد لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة.

في (سنة ١٨٦) حج الرشيد، ولما انصرف من حجه أتى الأنبار ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيى فرضي عنه بعد غضبه عليه وفي غاية المحرم أمر فيهم أمره فقتل جعفرأ وحبس يحيى وابنيه وصادر أموالهم كلها وقد حبس يحيى مع الفضل ومحمد في دير القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعدة من خدمهم وجواربهم ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمهم بالتسقف بسخطه وجدد لهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم.

#### حادثة عبد الملك بن صالح:

هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس وهو في درجة السفاح والمنصور نسباً. رفع إلى الرشيد أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها وأن البرامكة كانوا له عوناً والذي سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة فأحضر إلى الرشيد، فلما دخل عليه قال: أكفراً بالنعمة وجحوداً لجليل المنة والتكرمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين: لقد بؤت إذا بالندم وتعرضت لاستحلال النقم وما ذاك إلا بغني حاسد نافستي فيك مودة القرابة وتقديم الولاية إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ في أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل في حكمها والتثبت في حادتها والغفران لذنوبها. فقال له الرشيد: أتضع لي من لسانك وترفع لي من جنابك هنا كاتبت قمامة يخبر بخلك وفساد نيتك فاسمع كلامه. فقال عبد الملك: أعطاك ما ليس في عقده ولعله لا يقدر أن يعصمني ولا ييهتي بما لم يعرفه مني وأحضر قمامة فقال له الرشيد: تقدم غير هائب ولا خائف قال: أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك، فقال

عبد الملك : أهو كذلك يا قمامة؟ قال : نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين - فقال عبد الملك : كيف لا يكذب علي من خلفي وهو يبهتني في وجهي - فقال له الرشيد : وهذا ابتك عبد الرحمن يخبرني بعثوك وفساد نيتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك فيهم تدفعهما عنك؟ فقال عبد الملك : هو مأمور أو عاق مجبور فإن كان مأموراً فمعدور وإن كان عاقاً ففاجر كفور أخير الله عز وجل بعداوته وحذر منه بقوله : ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾<sup>(١)</sup> قال : فنهض الرشيد وهو يقول : أما أمرك فقد وضع ولكنني لا أعجل حتى أعلم الذي يرضي الله فيك ، فإنه الحكم بيني وبينك - فقال عبد الملك : رضيت بالله حكماً وبأمر أمير المؤمنين حاكماً فإني أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه .

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر فسلم عبد الملك لما دخل فلم يرد عليه الرشيد فقال عبد الملك : ليس هذا يوماً أحتج فيه ولا أجاذب منازعاً فقال الرشيد : لمه؟ قال : لأن أوله جرى على غير السنة فأننا أخاف آخره قال : وما ذلك؟ قال : لم ترد علي السلام نصف نصفه العوام فقال الرشيد : السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثاراً للعدل واستعمالاً للتحية . ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر وقال :

أريد حياته ويريد قتلي - أما والله لكأني أنظر إلى شؤبونها قد همع وعارضها قد لمع ، وكأني بالوعيد قد أوري ناراً تسطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم فمهلاً مهلاً بي والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت إليكم الأمور أثناء أزمته فندار لكم نذار قبل حلول داهية خبيوط باليد لبط بالرجل فقال عبد الملك : اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيتك التي استرعاك ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشدت أوأخي ملكك بأثقل من ركني يللمم وتركت عدوك مشتغلاً قاله الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن بلته بظن أفصح الكتاب لي بعضه أو يبغي باغ يتهش ويلغ في الدم ، فقد والله سهات لك الوعور وذلت لك الأمور وجمعت علي طاعتك القلوب في الصدور فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته كما قال أخو بني جعفر بن كلاب :

ومقام ضيق فرجته بينانٍ ولسانٍ وجدل

لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامي وزحل

فقال له الرشيد : أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك ثم أمر بحبه فحبس عند الفضل بن الربيع وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في السجن : إن عبد الملك بن صالح أراد الخروج علي ومنازعتي في الملك وقد علمت ذلك فأعلمني ما عندك فيه فإنك إن صدقتني أعدتلك

(١) سورة: التباين، الآية: ١٤ .

إلى حالك فقال: والله يا أمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك، لأن ملكك كان ملكي وسلطانك كان سلطاني والخير والشر كان فيه علي ولي، فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع في ذلك مني وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل بي أكثر من فعلك، أعيذك بالله أن تظن بي هذا الظن ولكن كان رجلاً محتملاً يسرني أن يكون في أهلك مثله فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت إليه لأدبه واحتماله. فلما أتاه الرسول بهذا أعاد عليه فقال: إن أنت لم تقر عليه قتلت ابنك الفضل فقال له: أنت مسلط علينا فافعل ما شئت على أنه إن كان من هذا الأمر شيء فالذنب فيه لي فبم يدخل الفضل في ذلك؟ فقال الرسول للفضل: قم فإنه لا بد لي من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك، فلم يشك أنه قاتله فودع أباه وقال له: أأست راضياً عني قال: بلى فرضي الله عنك ففرق بينهما ثلاثة أيام، فلما لم يجد عندهما من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده.

سفنا هذا لنبدل على أن التهم التي وجهت إلى البرامكة كافة ولا سيما جعفر سياسية محضة وفي القليل منها ما يكفي عند الرشيد لتغيير نعمتهم والغضب عليهم وإذا أضيف إلى ذلك غيرة السلطان ممن يساميه في سلطانه ويشاركه في نفوذ أمره كان ذلك أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حتى تخترع له تلك الحكاية التي يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها لأخلاق الرشيد وللتقاليد التي سار عليها بنو العباس فقد كان مما عده المتصور على أبي مسلم من ذنوبه وهو من هو في الدولة وتشديد بنائها أنه كتب إليه يخطب أمينة بنت علي بن عبد الله بن عباس ولم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد في أوقات ضعفهم وتسلط آل سلجوق عليهم فكيف يظن بمثل الرشيد أن يقدم على زواج سري كهذا سببه خيس؟ هذا بعيد جداً.

فيما تتبعناه من أحوال الرشيد كفاية فقد كان وصل من خوفه على ملكه وعلى نفسه إلى درجة الوسواس حتى جعله ذلك إذناً يسمع لكل واثٍ ويصدق كل حمود ففقد بذلك زهرة دولته وغرة جبينها بل زهرة الدولة العباسية كلها فقد وزراء إن كتبوا أجادوا وإن قادوا الجيوش سدوا الثغور، وإن ولوا عملاً أصلحوا وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه خدمه بل تراهم حذرين وجلين فما هي إلا وشاية تطرق حتى تراه قد أخذ بحلأقيمهم فأوردتهم شر مورد لا يبالي بما سبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فيه ما يرى لهم من الفضل بل ينسى ذلك كله ثم يتقدم عنده الوشاة وإن لم يكن لهم في ميدان الصالحين أثر فقد بقي للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من الشقاق والعداوة بين الأمين والمأمون كما سيحييء، لأن الرجل مفسد معتاد على اختلاق الأخبار ويرى ذلك يحسن في آذان الخلفاء فلم يكن يصطبر على ذلك فأفسد الدولة

وأوقع بأس الأمة بينها وإننا نعوذ بالله من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء فهم آفة الأمم وسوس عظامها .

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع ، فلم يسد المكان الذي سدوا .

### العلاقات الخارجية:

كانت دول هذا العصر الكبيرة دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية ودولة شارلمان الذي كان يميل إلى تجديد دولة الرومان الغربية ودولة الأمويين بالأندلس ، وحدثت في عهده دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى كما سبق .

### مع الروم:

من أعمال الرشيد أنه عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم ، وجعل قاعدتها منبجاً وأسكنها عبد الملك بن صالح (سنة ١٧٣) وسميت العواصم ، لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر . وكان من هذه العواصم دلك وربعان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون . ومن تلك المدن الشهيرة طرسوس وقد عمرت في زمن الرشيد على يد أبي سليم فرج الخادم التركي ، ونزلها الناس وكان يغزو الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ووصل (سنة ١٧٥) إلى إقريطية . وفي (سنة ١٨١) غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح عنوة حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة .

ولم يزل عبد الملك يرى الثغور وحربها وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزله الرشيد وحبه بعد نكبة البرامكة (سنة ١٨٧) فولى بعده القاسم بن الرشيد وسكن منبجاً فغزا الروم وأناخ على حصن قره وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعث الروم تبذل (٣٢٠ رجلاً) من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم إلى ذلك ورحل عن حصني قره وسنان . كان يملك الروم في ذلك الوقت إريني وكانت في أوائل أمرها تنوب عن ابنها قسطنطين السادس منذ (سنة ٧٨٠) ، ثم استبدلت بالملك (سنة ٧٩٠) فاتفتت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقوم بدفعها له وذلك لما رآته من إلحاح المسلمين عليها بالحرب وعدم قدرتها على الدفاع لوقوعها بين المسلمين من جهة وبين شارلمان من جهة أخرى وكلتا الدولتين تناوئها العداوة ، لأن شارلمان كان يريد توسيع سلطانه وإعادة دولة الرومان إلى بهجتها التي كانت لها في القدم ، وفي (سنة ٨٠٢) نهضت عليها عصابة رومية فخلعتها عن الملك ومملكة مكانها نقفور فعقد معاهدة مع شارلمان عينت فيها تخوم المملكتين ثم كتب إلى الرشيد:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام  
الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها لكن  
ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها وافند نفسك بما  
يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك - فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى  
لم يمكن أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم  
واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعا بدواة وكتب على ظهر  
الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت  
كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام). ثم شخص من يومه وسار حتى أتاه باب هرقلة  
ففتح وغنم واصطفى وأقاد وخرب وحرق واصطلم فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل  
سنة فأجابته إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرقعة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان  
البرد شديداً فيفس نقفور من رجوعه إليه وجاء الخير بارتداده عما أخذ عليه فما تهيأ لأحد إخبار  
الرشيد بذلك إشفافاً عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الأيام فاحتيل بشاعر يكتنى  
أبا محمد بن عبد الله بن يوسف فقال:

نقض الذي أعطيته نقفور	وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه	فتح أتاك به الإله كبير
فلقد تابشرت الرعية أن أتى	بالنقض عنه وافد ويشير
ورجت يمشك أن تعجل غزوة	تشفي النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده	حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها	بأكفنا شعل الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلاً	عنه وجارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى	عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدردت أنك مفلت	هبتك أمك ما ظننت غرور
ألقاك حينك في زواجر بحره	فظمت عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك قادر	قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً	عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه	فعدوه أبداً به مقهور
يا من يريد رضا الإله بعميه	والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش إمامه	والنصح من نصحائه مشكور

نصح الإمام على الأنام فريضة ولأهلها كفارة وطهور  
فلما فرغ الشاعر من إنشاده قال: أو قد فعل نقفور ذلك وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في  
ذلك فكر راجعاً في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أتاه بفنائه فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد فقال  
أبو العتاهية:

ألا نادى هرقله بالخراد	من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا	ويرقب بالمذكرة القضاء
ورايات يحل النصر فيها	تمر كأنها قطع الحباب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم	وأبشر بالغنيمة والإياب

ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك، وفي (سنة ١٨٩) حصل فداء بين المسلمين  
والروم، فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي به وهذا أول فداء كان بين المسلمين والروم، فقال  
مروان بن أبي حفصة يمدح الرشيد:

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها	محابس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكأكها	وقالوا سجون المشركين قبورها

وفي (سنة ١٩٠) غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح هرقله وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم  
وكان دخلها في (١٣٥ ألف) مرتزق سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له، وكان  
فتح الرشيد هرقله في شوال فأضر بها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوماً عليها وولى حميد بن  
معيوف سواحل الشام إلى مصر فبلغ حميد قبرص فانتصر على أهلها.

ثم سار الرشيد إلى الطوانة فعسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر وأمره  
بإبتناء منزل هنالك وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر  
أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنائير وعن رأس ابنه استيراق ديناران وكتب مع  
بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقله كتاباً نسخته - لعبد الله هارون أمير المؤمنين  
من نقفور ملك الروم: سلام عليك، أما بعد، أيها الملك إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك  
ولا دنياك هينة يسيرة أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقله كنت قد خطبتها على ابني فإن رأيت  
أن تسعفني بحاجتي فعلت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته - واستهده أيضاً طيباً وسرادقاً من  
سرادقاته، فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان  
نازلاً فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور، وبعث إليه بما  
سأل من العطر وبعث إليه التمور والأخبصة والزبيب والترياق فسلم ذلك كله رسول الرشيد،  
فأعطاه نقفور وقر دراهم إسلامية على يردون كحيت كان مبلغه خمسين ألف درهم ومائة ثوب

ديباج ومائتي ثوب بزيون واثنى عشر بازيماً وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين - وكان نقفور اشترط ألا يخرب الرشيد حصن ذي الكلاع ولا صملة ولا سنان واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقله وعلى أن يحمل ثلثمائة ألف دينار.

وفي (سنة ١٩١) غزا الصائفة هرثمة بن أعين أحد كبار القواد وضم إليه ثلاثين ألفاً من أهل خراسان ومعه مسرور الخادم واليه في النفقات وجميع الأمور ما خلا الرياسة ومضى الرشيد إلى درب الحدث فرتب هنالك عبد الله بن مالك ورتب سعيد بن سلم بن قتيبة بمرعش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد مقيم بها. وبعث محمد بن يزيد بن مزيد إلى طرسوس - فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ثم انصرف إلى الرقة.

وعلى الجملة فإن قوة المسلمين كانت في عهد الرشيد ظاهرة ظهوراً بيناً على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالي ومعه عظماء القواد وكبار رجال الدولة من عرب وموالي وخراسانية.

### العلاقة مع أوروبا:

كان في عهد الرشيد شارلمان بن بابن، وكان ملكاً على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التي كانت في جرمانيا إلى الدين العيسوي بعد أن كانت وثنية واستولى على ألمانيا وإيطاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير في الديار الشرقية لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية وكان يرغب أن يكون حامياً للعيسويين في البلاد الإسلامية وخصوصاً زائري القدس، فأرسل إلى بغداد سفراء يستجلبون رضا هارون الرشيد وكان لشارلمان غرض من مصافاة الرشيد فوق ما تقدم وهو إضعاف الدولة الأموية بالأندلس ففاز سفير شارلمان برضا الرشيد فسر بذلك، لأنه عده فوزاً على نقفور، ولهذا لما قدم سفير الرشيد على شارلمان قابله بمزيد الإكرام، واستفاد شارلمان من ذلك التودد فائدتين الأولى تمكنه من حرب الدولة الأموية بالأندلس وتداخله في مساعدة الخارجين عليها والثانية نيله رضا الرشيد. وقد أراد أيضاً أن يغتنم غنيمة علمية فإن أوروبا في ذلك الوقت كانت مهد جهالة، لأنه بانقراض الرومانيين وغلبة الأمم المتبريرة على أوروبا انظفاً مصباح العلم. أما الحال في البلاد الإسلامية، فكانت على العكس من ذلك علماً وعملاً سواء في ذلك بغداد وقرطبة، فسعى شارلمان في إصلاح قوانين دولته مقلداً هارون الرشيد وذهب إلى أوروبا أطباء تعلموا في البلاد الإسلامية، وكانوا من اليهود فانتخب منهم شارلمان رجلاً يقال له إسحاق وأرسله إلى الرشيد مصحوباً ببعض الهدايا وبعد أربع سنين عاد إسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهي ساعة وراغنون وفيل وبعض أقمشة نفيسة. فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية وأوقعتهم في حيرة وهموا بكسر الساعة فصنعهم

الإمبراطور. وفي ذلك التاريخ اتفقوا على أمور تتعلق بحماية الميحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس.

أما علاقة بغداد بقرطبة فكانت شر علاقة إذ أن الرشيد كان ينظر إلى بني أمية نظر الخارجين على دولته، فكان يود محوهم ولكن القوم كانوا أكبر من ذلك وأقوى، فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة ولم يتمكن أن يفعل بهم شراً.

### حضارة بغداد في عهد الرشيد:

وصلت بغداد في عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها.

أما من حيث العمارة، فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدا بنيت فيها القصور الفخمة التي أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الدينانير و تأتق مهندسوها في إحكام قواعدها وتنظيم أمكتتها وتشييد بنايتها وصارت قصور الجانب الشرقي بالرفافة تناوح قصور الجانب الغربي، كان في الشرق قصور البرامكة وما أنشأه هناك من الأسواق والجوامع والحمامات وبالجانب الغربي قصور الخلافة التي كانت تبهر الناظرين اتساعاً وجمالاً وامتدت الأبنية امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين على جانبي دجلة واستبحر العمران فيها لما جاورها من الشنايا وصار سكانها نحو ألفي ألف نسمة حتى ازدحمت بساكنيها وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً تجيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الشام والجزيرة والطرق إذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة وكان الرشيد هو ووزراؤه حريصين على ذلك كل الحرص.

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج الأقاليم الإسلامية بعد أن تفضى جميع حاجاتها وقدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربعمائة ألف ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف منه في مرتبات الوزراء المساعدين له والباقي يتصرف فيه حسبما يرى وهو شيء جسيم، وكان الرشيد أسمح خلفاء بني العباس بالمال يعطي منه عطاء من لا يخشى فقراً للقصاد والشعراء والكتتاب والمتجعين وقد جرى على سنه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم التي قد يتردد الإنسان في صحتها وتلك الثروة العظيمة تتداولها الأيدي فتروج التجارة وتفضى الحاجات وتكثر المدنية وعلى تلك السنة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى واشتد بهم الترف حتى يقال إن جعفر بن يحيى بنى قصرأ أنفق على بنائه عشرين ألف ألف درهم وتغالى الناس في حاجاتهم وتأنقوا في معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشبه بين ما عندهم وما يرون من ثرائها وبذخ أهلها وانغماسهم في الملاذ وإعطائهم أنفسهم ما تصبو إليه من اللهو والمخلاة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة.

وأما العلم فإن بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية يرحلون إليها لیتموا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون فهي المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والتحويين وكلهم قائمون بالدرس والإفادة لتلاميذهم في المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقي هذه العلوم وقلما كان يتم لإنسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها.

وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشاً رغداً مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم.

ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصناع من الأقاليم المختلفة فاستفادوا العلوم ممن سبقهم من الأمم في المدينة كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصابئة وغيرهم، وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية وسرجه الكلام على النهضة العلمية في بغداد إلى زمن المأمون.

#### أخلاق الرشيد:

كان الرشيد خليفة ديناً محافظاً على التكاليف الشرعية أتم محافظة، فأما صلته فكان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة، وكان له سمير فكه هو ابن أبي مريم المدني كان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته سمعه مرة يقرأ في صلته: ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾<sup>(١)</sup> فقال ابن أبي مريم: لا أردى واللّه فما تملك الرشيد أن ضحك في صلته ثم التفت إليه وهو كالمغضب فقال: يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً ثم قال: إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

وأما صدقته فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا التي كانت تهطل على الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده.

وأما حجه فإنه كان لا يتخلف عنه إلا إذا كان مشغولاً بالغزو فهو في كل عام بين غاز وحاج وقد أقام للناس حجهم تسع مرات في سني حكمه وهي السنوات (٧٠) و (٧٣) و (٧٤) و (٧٥) و (٧٧) و (٨٠) و (٨١) و (٨٦) و (٨٨) بعد المائة وكان إذا حج حج معه من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج يحج عنه ثلثمائة رجل بالنفقة السابقة والكسوة الباهرة.

وكان يسمع وعظ الواعظين وهو عند ذلك رقيق القلب سريع الدمعة. دخل عليه ابن السماك

(١) سورة: يس، الآية: ٢٢.

الواعظ فقال له الرشيد: عظني فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله وحده لا شريك له واعلم أنك غداً بين يدي الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نار فبكى هارون حتى اخضلت لحيته فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال: سبحان الله وهل يتخالج أحداً شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله - فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت إليه وأقبل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا (يعني الفضل بن الربيع) ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم فاتق الله وانظر لنفسك - فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف - ودخل عليه مرة أخرى فينا هو عنده إذ استسقى ماء فأتي بقلعة من ماء، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها قال له ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشربها؟ - قال: بنصف ملكي - قال: اشرب هناك الله - فلما شربها قال له: أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها قال: بجميع ملكي قال ابن السماك: إن ملكاً قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه فبكى هارون - ولا يزال الملوك بخير ما سمعوا الوعظ وتأثروا به ولا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم .

وأما جهاد الرشيد، فإنه كان لا يترك الخروج مع جنده بل كان غالباً في مقدمتهم حتى لا يعتاد الراحة ولا يقعه الترف عن القيام بهذا الواجب حتى كان من ضمن مآثره أنه كان يغزو سنة ويحج أخرى قال مروان بن أبي حفصة:

وسدت بهارون الثغور وأحكمت	به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقوداً بنصر لوائه	له عسكر عنه تشظى العماكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية	على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر

وكان لهارون قلنسوة مكتوب عليها غاز حاج فكان يلبسها فقال أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يردده	فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمر	وفي أرض الترفه فوق طور
وما حاز الثغور سواك خلق	من المتخلفين على الأمور

لذلك كانت الخلافة لعهد في أعلى درجات مهابتها واحترامها في الداخل والخارج، كان الرشيد يقتضي آثار المنصور ويعمل بها إلا في بذل المال وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء في الدين ويقول: هو شيء لا نتيجة له وبالبحري لا يكون فيه ثواب وكان يحب

المديح ولا سيما من شاعر فصيح ويشتره بالثمن الغالي . وعطاياه للشعراء والأدباء تكاد تخرج عما يعقل .

والخلال التي كانت واضحة في أعماله الشجاعة وشدة الغضب ومعاقبة المسيء بلا شفقة ولا رحمة، فكان يقود الجيش بنفسه إلى المواضع المخوفة حتى استقامت له البلاد وهابه كل خارج وناثر وكان إذا بلغه عن أحد من رعيته ما يريبه اشتد غضبه وزاد انفعاله حتى لا يكاد أحد يقدر أن يكلمه وإذا وقع عدوه في يده لم يتأخر عن أشد عقوبة له وقلما كان يعفو وبهذا فضله ابنه المأمون كما سيجيء في تاريخه .

واشتهر أن الرشيد كان يشرب النبيذ الذي يرخص أهل العراق في شربه وكان يسمع الغناء ويشيب عليه أعظم ثواب، ولذلك اشتهر في زمنه أعظم الموسيقيين والمغنين ببغداد ممن لم يأت بعده مثلهم كما يرى ذلك من اطلع على الكتاب الموسوم بالأغاني لأبي الفرج الأصبهاني .

ولا مرأ أن الرشيد يعد من كبار الخلفاء ونوابغهم لولا كثرة وسواسه بالكائدين له، فإن ذلك أكثر الجاسوسية في عهده وصار المتقربون يتقربون إليه بما يتلقونه من أخبار السوء حتى فقد أعظم وزرائه وأحسنهم أثراً وأعلامهم كعباً واستبقى الفضل بن الربيع لأن أخباره ما كانت تنقطع عنه يوماً .

#### وفاة الرشيد:

خرج الرشيد من بغداد في خامس شعبان (سنة ١٩٢) فاصداً خراسان عندما بلغه استفحال أمر رافع بن الليث بما وراء النهر واستخلف ابنه محمداً الأمين بمدينة السلام وخرج معه ابنه عبد الله المأمون ولم يزل الرشيد في مسيره حتى وافى مدينة طوس في صفر (سنة ١٩٣) وهناك اشتدت به علة ولحق بويه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة (سنة ١٩٣) وصلى عليه ابنه صالح، لأن المأمون كان قد سبقه إلى مرو حاضرة خراسان ودفن الرشيد بهذه المدينة .

وكان للرشيد اثنا عشر ولداً ذكراً وأربع بنات، فذكور أولاده محمد الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر وعلي من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى الهادي - وعبد الله المأمون والقاسم والمؤمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو علي ومحمد أبو أحمد وهم لأمهات أولاد شتى .

وتزوج الرشيد بست زوجات. مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محمد بنت صالح المسكين والعباسة بنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبد الله العثمانية .

## أثر جليل من عهد الرشيد

### الخراج:

بين يدينا أثر من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني وهو كتاب الخراج للفقير أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣ - ١٨٢).

كان خليفة المسلمين في هذا التاريخ خامس بني العباس هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور وكان قاضي قضائه أبا يوسف وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته، كما كان أبوه المهدي من قبله ويحب من جهة أخرى أن تنظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذي سنه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم ويخرب عمرانهم وحتى يكون بيت المال قائماً بما يجب عليه من مصالح الأمة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها فكتب إلى قاضيه الأكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام وكتب جوابه عن تلك الأسئلة في رسالة عظيمة الشأن، سميت بكتاب الخراج وهي التي جعلناها موضوع محاضرتنا هذه الليلة.

لم يكن أبو يوسف في رسالته ذلك الفقيه الجاف الذي هو في خيال الكثير منا يكتب جوابه متوراً متقولاً من مسطر سبق به أو ذلك المفتي الضعيف ينظر إلى غرض المستفتي فيجتهد أن تكون فتواه طبق رغبته بل كان ذلك العالم الناصح الذي سبر حال الأمة فعرف ما يصلحها وأدرك سر الدين الذي أوحى الله به إلى رسوله ﷺ لإصلاح حال الأمة فجال في ميدانه جولة الفارس العالم بشيآت الطريق وأحاط علماً بتاريخ المسائل التي يفتي فيها. فبينما نراه واعظاً لا يخاف في الله لومة لائم يصوغ من كلمات النصيح أشدها وقها وأقواها تأثيراً يوجهها إلى إمامه مع رعاية الأدب واللياقة إذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الأمور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك وبيننا أنت تستخرج منه لطائف التاريخ إذا بك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستنئاً بسنة أسلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر ما يفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التي يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة فينبه الإمام إلى مخازيهم ويرفع صوته طالباً إجراء العدالة فيهم ويشير على إمامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق ويبين له كيف يفعل في ذلك ليكون ناجياً بين يدي الله سبحانه وتعالى الذي جعله كفيلاً لحقوق الرعية.

هذا هو الكتاب الجليل الذي يعطي من قرأه صورة في غاية الجمال والكمال لذلك الفقيه المتقدم.

وغرضنا التعرف بما انتظمه هذا في الكتاب حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها في هذا العصر وإذا كان عندنا كلمة نقولها لإيضاح شيء مما قد يحتاج إلى الإيضاح نبهنا عليها. انتظمت هذه الرسالة ثلاثة أمور:

الأول: بيان موارد الدولة على اختلافها حسبما جاءت به الشريعة ومصارف تلك الأموال.

الثاني: بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال.

الثالث: بيان بعض الواجبات التي يلزم بيت المال القيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به. ونحن نتكلم في ذلك متبعين هذا الترتيب وقد يخالف طريقة ترتيب الكتاب لأن القصد تقريبه إلى النفوس من أسهل الطرق.

#### موارد بيت المال:

يتبين من كتاب الخراج أن موارد بيت المال تنقسم بحسب ما يجب أن تصرف فيه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: خمس الغنائم.

الثاني: الخراج.

الثالث: الصدقات.

#### الغنائم:

الغنيمة كل ما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكرراع. وجعل منها أبو يوسف ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير والركاز وهو الذهب والفضة الذي خلقه الله في الأرض يوم خلقت. والكنوز العادية التي تصاب في غير ملك أحد وما أخرج من البحر من الحلبي والعنبر كل ذلك حكمه واحد وهو أن للإمام خصه. أما أربعة أخماسه الباقية فتكون حقاً للغنمين فيما أصيب مع المحاربين وتكون حقاً للواجد فيما عداها.

ويقسم الإمام أربعة الأقسام على القائميين سواء في ذلك أهل الديوان والمتطوعون يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم، وخالف في ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله حيث قال: للفارس سهمان وللراجل سهم. وقال للرشيد: فخذ بأي القولين رأيت

واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين فإن ذلك موسع عليك إن شاء الله ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين .

### مصرف الخص:

بين الله في كتابه مصرف الخمس في الآية من سورة الأنفال حيث يقول: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم أمتمتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير﴾<sup>(١)</sup>. قال أبو يوسف: فكان ذلك الخمس يقسم في عهد رسول الله ﷺ لله وللرسول وسهم ولذي القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى . وروي عن ابن عباس أنه قال: عرض علينا عمر بن الخطاب أن تزوج من الخمس أيما ونقضي عن غارمنا فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى علينا سلفه ومع أن ذلك كان رأي علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه قسم الخمس كما قسمه .

وذكر أبو يوسف أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوي القربى في الكراع والسلاح . وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث بسهم الرسول وسهم ذوي القربى إلى بني هاشم . قال: وكان أبو حنيفة وأكثر فقهاتنا يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم . وأقول: رأي الشافعي محمد بن إدريس المظلي رحمه الله أن سهم الرسول يصرف في مصالح المسلمين وسهم ذوي القربى يصرف لمن ينتسب إلى هاشم والمطلب ابني عبد مناف دون بني أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوى في العطاء بين الأغنياء والفقراء لأن سبب الاستحقاق القرابة ويشترط فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر والأنثى كما قال المزني وأبو ثور من أصحاب الشافعي وللذكر مثل حظ الأنثيين كما قال غيرهما . ويقول الشافعي: قال أحمد: إلا أنه قال: إن رده صرف في السلاح والكراع كفعل أبي بكر وعمر وعثمان .

### الخراج:

المورد الثاني من موارد الخلافة الخراج وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء:

- ١ - وظيفة الأرض الخراجية .
- ٢ - جزية أهل الذمة .
- ٣ - ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب .

(١) سورة: الأنفال، الآية: ٤١.

## وظيفة الأرض الخراجية:

لما غلب المسلمون على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة والشام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلب إليه بعض ذوي الرأي من الصحابة أن يقسم الأرض على الغانمين كما قسم ما أصابوه من سلاح ومتاع وأكثروا عليه في ذلك فأبى عليهم <sup>مبدأ</sup> إلى كتاب الله تعالى الذي جعل هذا الفيء حقاً للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم. ذكر ذلك في سورة الحشر حيث قال: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون \* والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون \* والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾<sup>(١)</sup>.

فجعل هذا الفيء حقاً للمهاجرين والأنصار ولمن جاء بعدهم ومن أجل ذلك لم يرض عمر بقسمة الأرض بين الغانمين، لأنه لو قسمها بينهم لم يبق لمن يأتي بعدهم شيء بل ترك الأرضين والأنهار بعمالها ليكون ذلك في أعطيات الجنود وغير ذلك، ومن هنا رأى أبو يوسف رحمه الله أن هذين الأرضين المفتوحة عنوة بخير فيها الإمام فإن شاء قسمها بين الغانمين الذين افتتحوها وإن لم ير قسمها رأى الصلاح في إقرارها في يد أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السواد، فله ذلك وهي أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهي ملك لهم يتوارثونها ويتبايعون ويضع عليهم الخراج ولا يكلفون من ذلك ما لا يطيقون.

وإذاً يكون حد أرض الخراج - كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام وأبقاها بأيدي أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة.

ويخرج من ذلك أنواع من الأراضي لا يوضع عليها الخراج وإنما تكون أرضاً عشرية وهي:

- ١ - كل أرض للعرب غير بني تغلب.
  - ٢ - كل أرض من أرض الأعاجم أسلم عليها طوعاً.
  - ٣ - كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الغانمين.
- وسنبين حكم كل نوع بعد الكلام على أرض الخراج.

(١) سورة: الحشر، الآيات: ٨ - ١٠.

### ما فعله عمر في أرض الخراج:

لما اتضح لعمر رأيه في الأرض المغنومة أرسل من قبله من يمسح أرض السواد فبلغت (٢٦,٠٠٠,٠٠٠) جريب فوظف عليها الخراج مقادير معينة من الدراهم وأطعمه حسبما رأى المنتدوبان اللذان أرسلهما لذلك، وهذه الوظيفة تختلف من درهمن لعشرة دراهم على الجريب فأقلها وظيفة جريب الشعير عليه درهمان وأكثرها وظيفة جريب الكرم والتخل عليه عشرة دراهم في رواية وثمانية في أخرى، وبين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم وجريب الحنطة أربعة دراهم أو درهم وقفيز وجريب الرطبة والسسم والقطن خمسة دراهم وجريب القصب ستة دراهم. قال: إن جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام (١٠٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم.

أقول: وإذا كانت المساحة كما قدمنا والجباية ما ذكرنا يكون متوسط جباية الجريب (٢,٧٥ درهم)، وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التي كانت تؤخذ على أجرية الحنطة، لأن هذا المتوسط بدونها لا يصلح إلا إذا كان معظم الأرض يزرع شعيراً وهو بعيد. وقال ابن خرداذبه: إن عمر جبا العراق (١٢٨,٠٠٠,٠٠٠) درهم، فيكون متوسط جباية الجريب (٣,٥٥) درهم وهو أقرب من المفهوم، ولا بد أنه لم يعتبر في ذلك أجرية القمح والجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وهي (٥٧,٧٧) وبالتكسير تكون مساحة الجريب (١٢٠٠ م)، فكل ثلاثة أجرية ونصف فدان مصري. ولا بد أن نبه هنا على ما رأيناه في كتاب صاحب السعادة المفضل يعقوب أرتين باشا الموسوم بالأحكام المرعية في الأراضي المصرية، فإنه روى عن قدامة أن الجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وظن أن ذراع الملك هي الذراع السوداء فوق في الخطأ الحسابي الذي أنتج له أن كل أربعة أجرية و (٥/٤) جريب تعادل فداناً مصرياً مع أن هناك اختلافاً بين الذراعين كما ذكره الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية حيث قال: إن ذراع الملك تزيد على الذراع السوداء بخمسة أصابع وثلاثي إصبع فتكون ذراعاً وثماناً وعشراً أي ذراعاً و (٩/٤٠)، وحقق العلامة المرحوم علي مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هي (٥ : ٤) فتكون ذراع الملك ذراعاً وربعاً بالسواد. وقد نتج له هذا من تقدير المتقدمين لضلع قاعدة الهرم الأكبر بأربعمائة ذراع بذراع التجار و (٥٠٠) بالذراع السوداء وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على (٥٠٠, ٤٠٠) يخرج هذان الرقمان (٧٥, ٧٧ س) وهو طول ذراع الملك و (٤٦, ٢ س) وهو طول الذراع السوداء.

وإذا كان كل (٣, ٥) جريب فداناً تكون ضريبة الفدان المزروعة قمحاً (١٤) درهماً هذا هو الخراج الموظف الذي رآه عمر.

لم ير أبو يوسف رحمه الله ما قرره عمر رضي الله عنه في أمر الخراج حيث جعله وظيفة محدودة أمراً لازماً لمن يأتي بعده بل يجوز للخلفاء إذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين في المقاسمة

أن يعدلوا إليها وقد تاظر أبو يوسف أهل العلم بالخراج في هذا الأمر، فرأى أن تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج. أما وظيفة الطعام فإن كان رخيصاً رخصاً فاحشاً لم يكتف السلطان بالذي وظف عليهم ولم يطب نفساً بالحط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور - وإن كان غلاء فاحشاً لا يطيب السلطان نفساً بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك والرخص والغلاء بيد الله لا يقومان على أمر واحد، وكذلك وظيفة الدراهم. ثم قال: وأما ما يدخل على أهل الخراج فيما بينهم فهو التظالم وغلبة القوي على الضعيف ثم قال ولم أجد شيئاً أوفر على بيت المال ولا أعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل. وقد رأى أن يقاسم من عمل الحنطة والشعير من أهل السواد جميعاً على خمسين للصح منه، وأما الدوالي فعلى خمس ونصف، وأما النخل والرطاب والكرم والبساتين فعلى الثلث، وأما غلال الصيف فعلى الربع ولا يؤخذ بالخرص في شيء من ذلك ولا يحرز عليهم شيء منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات في أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر. ثم يؤخذ منهم ما يلزمهم من ذلك أي ذلك كان أخف على أهل الخراج فعل ذلك بهم. وإن كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان أخف فعل ذلك بهم. ومن رأي أبي يوسف إعفاء ما دون خمسة أوسق من الخراج وهي (٣٠٠) صاع أو (١٦٠٠) رطل، وخالف في ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله.

وقد أشار أبو يوسف بأن يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر ما يمكن الدياس فإذا أمكن الدياس رفع إلى البيادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوماً واحداً لئلا تذهب به الأكرة والمارة والطيور والدواب فيضر ذلك بالخراج. وإذا رفع إلى البيادر وصير أكداً أخذ في دياسه ولا يحبس الطعام إذا صار في البيادر الشهر والشهرين والثلاثة لا يداس فإن في حبسه في البيادر ضرراً على السلطان وعلى أهل الخراج، وبذلك تتأخر العمارة والحرث ولا يخرص عليهم ما في البيادر ولا يحزر عليهم حزرأ ثم يؤخذون بنقائص الحزر، فإن هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم.

ثم قال: ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفان ولا نزلة ولا حمولة طعام السلطان ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولا أجور الكياليين ولا مؤنة لأحد عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذي وصفنا من المقاسمة ولا يأخذون بثمر الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلاً أو تباع فيقسم ثمنها

على ما وصفت من القطيعة في المقاسمة ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجاً لدرهم يؤدونها في الخراج فإنه بلغني أن الرجل منهم يأتي بالدرهم ليؤديها في الخراج فيقطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرقها ولا يضرب رجل في درهم خراج ولا يقام على رجله فإنه بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله وشنيع في الإسلام.

من أجل ذلك ترى أن أبا يوسف رحمه الله دقق كثيراً في أمر من يولى جباية الخراج فأشار على إمامه أن يكون والي ذلك فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأي عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف في الله لومة لائم ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة. وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت تجوز شهادته إن شهد ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم. ثم قال: إني قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياماً ولاء رقاب المسلمين وجباية خراجهم، ولعله لا يكون عرفاً بسلامة ناحية ولا عقاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ثم قال: وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوقاً لأهل عمله ولا محتقراً لهم ولا مستخفاً بهم لكن يلبس لهم جلباباً من اللين يشويه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا ويحملوا ما لا يجب عليهم، واللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وإتصاف المظلوم والشدة على الظالم والعمو عن الناس. قال: وإني لأرجو إن أمرت بذلك وعلم الله من قلبك إيثارك ذلك على غيره ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مخالف أن يأخذه الله دونك وأن يكتب لك أجرك وما نوبت إن شاء الله. ولتصير مع الوالي الذي وليته قوماً من الجند من أهل الديوان في أعناقهم بيعة على التصح لك، فإن من نصحك أن لا تظلم رعيتك وتأمراً بإجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهراً بشهر ولا تجري عليهم من الخراج درهماً فيما سواه.

ثم تكلم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهم فوق مالهم ونبه عليه وطلب منه أن يحسم ذلك كله سداً لضرر أهل الخراج ونقص الفبي.

ورأى مع هذا كله أن يبعث الإمام قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به الخراج وكيف جبوه على ما أمروا به وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر فإذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه، بعد العقوبة الموجعة والنكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد إليهم فيه فإن كل ما عمل به وائي الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل على أنه قد أمر بغيره وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترأوا

على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم وإذا صح عندك من العامل والوالي تعدُّ بظلم وعسف وخيانة لك في رعيتك واحتجاز شيء من الشيء أو خبث طعمته أو سوء سيرته فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئاً من أمور رعيتك أو تشركه في شيء من أمرك.

### تقبل الأرض:

كان النظام المتبع في جباية الخراج التقبل وهو جعل شخص من الأشخاص قبلاً أي كفيلاً بتحصل الخراج وأخذ نفسه مقابل قدر معلوم يدفعه وكان الناس يتزايدون فيما يتقبلون به الأرض فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفضل بين ما دفعه وما حصله وقد كره أبو يوسف هذا النظام، فقال للرشيد: ورأيت ألا تقبل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد، فإن المتقبل إذا كان في قبالة فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما يدخل فيه وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالة ولعله يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم في الشمس وتعليق الحجارة في الأعتاق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذي نهى الله عنه إنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم، وإنما أكره القبالة لأنني لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضرب ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكر الخراج وليس يبقى على الفساد شيء ولن يقع مع الصلاح شيء إن الله قد نهى عن الفساد في الأرض فقال: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾<sup>(١)</sup> وقال: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾<sup>(٢)</sup> وإنما هلك من هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشتري منهم وإظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم، والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذي لا يحل ولا يصح - واختار أبو يوسف التقبل إذا طلبه أهل القرية أو المصر وقالوا: هو أخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رتب أمين رزقه من بيت المال حتى يمنعه من ظلم إن أراد والأعداء إلى المتقبل والموالي يرفع الظلم عن الرعية والوعيد له إن حملهم ما لا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم فإن فعل فأفوا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجراً له ونهاياً لغيره إن شاء الله.

### القطائع:

القطائع جمع قطيعة وهي ما يمنحه الإمام من الأرض لبعض الممتازين بفعالهم من الرعية.

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٥٦.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٠٥.

قال أبو يوسف رحمه الله: إن عمر رضي الله عنه بعد أن فتح العراق اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرزبته وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد أو لرجل قتل في الحرب أو لحق بأرض الحرب وكانت مساحة ما اصطفاه من هذه الأرض (٤,٠٠٠,٠٠٠ جريب) فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع، قال أبو يوسف: وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث، فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابي به فكذلك هذه الأرض. ثم قال: فأما من أخذ واحداً وأقطع آخر فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطى واحداً.

والإمام مخير في هذه الأرض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية إن كانت تسقى من أنهار الخراج. قال أبو يوسف: وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضاً من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الأصناف التي ذكرنا أن الإمام يقطع منها فلا يحل لمن يأتي بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرج من يدي من هو في يده وارثاً أو مشترياً. فأما ما أخذ الولاة من يد واحد أرضاً وأقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحداً وأعطى آخر، فلا يحل للإمام ولا يسعه أن يقطع أحداً من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئاً إلا بحق يجب له عليه فيأخذه بذلك الذي يجب له عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والأرض عندي بمنزلة المال فللإمام أن يجيز من بيت المال من كان له غناء في الإسلام ومن يقوى على العدو ويعمل في ذلك بالذي يرى أنه خير للمسلمين وأصلح لأمرهم وكذلك الأرضون يقطع منها الإمام من أحب من الأصناف التي سميت ولا أرى أن يترك أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام، فإن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج. فهذا حد الإقطاع عندي على ما أخبرتكم. ومن رأي أبي يوسف أن أرض الإقطاع تجعل عشرية لما يلزم صاحب الإقطاع من المؤنة في حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض.

ومن أجل ذلك يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتي ذكره.

### موات الأرض:

قال أبو يوسف: لو أن بلاداً فتحت عنوة أو صلحاً وفي بعض قرأها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد وليست مرافق لقرية من القرى فهي موات؛ فمن أحيائها فهي له وللإمام أن يقطع ذلك من أحب وله أن يؤجره ويعمل بما فيه الصلاح، وقد خالف شيخه أبا حنيفة رحمه الله في إحياء الموات فإن الإمام يقول: لا يملك المحيي ما أحيأ إلا بإذن الإمام، قال أبو يوسف: وإنما قال ذلك أبو حنيفة كيلا يتنازع الناس.

وإذا كانت الأرض الموات في أرض العشر أدى عنها العشر وإن كانت في أرض الخراج أدى عنها الخراج، وإن احتضر لها بئراً أو استبط لها قناة كانت أرض عشر أما إن ساق إليها ماء الخراج فهي أرض خراج.

قال أبو يوسف: وأيما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لأحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل وأحياها وأدى عنها العشر أو الخراج فهي له وليس للإمام أن يخرجها من يده.

وجعل من الأرض الموات ما ينكشف من الجزر في دجلة والفرات إذا كان لرجل جزيرة أو أرض تلاصقها فحصنها من الماء وزرع فيها، فهي له بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا يسير السفن وكذلك ما عولج من البطائح بضرب المنيات عليها وقطع ما فيها من القصب وكذلك ما عولج من الآجام - كل ذلك مشروط بالألا يكون للأرض مالك أو ذو يد أو مرتفق، فإن المحافظة على حقوق ارتفاع الجمهور مما أكد فيه أبو يوسف، حتى منع من إنشاء الغروب في دجلة إذا كان ذلك بموضع يضر بسير السفن التي تمر في دجلة ومن فعل من ذلك شيئاً فعضبت به سفينة فهو ضامن قال أبو يوسف: ولا يترك الإمام شيئاً من ذلك إلا أمر به فهدم ونحى فإن في هذا ضرراً عظيماً فالفرات ودجلة إنما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئاً فمن أحدث فيه شيئاً فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن يوكل بذلك رجلاً ثقة أميناً حتى يتتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيئاً في دجلة والفرات في موضع يضر بالسفن ويتخوف عليها منه إلا نحاه وتوعد أهله على إعادة شيء منه فإن في ذلك أجراً عظيماً. وتكلم طويلاً في المياه على اختلاف أنواعها وحقوق الجمهور فيها.

#### المورد الثاني من موارد الخراج جزية أهل الذمة:

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الرؤوس وهذه الجزية يقابلها من المسلمين الحماية ودفع العدو عنهم. وذلك أنهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين في حروبهم وقد رأيت من السنن العمرية أن من استعين به من غير الملة لا يدفع جزية. روى الطبري في حوادث (سنة ٢٢) من الهجرة أن عبد الرحمن بن ربيعة أحد قواد عمر لما توجه من أذربيجان لفتح الباب أتاه ملكه شهريراز فقال له: إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا يسبون إلى أحساب وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان ولست من القبح في شيء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادهم وأمتي فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصفوي معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم. فقال

عبد الرحمن: فوقي رجل فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقه بن عمرو فلقبه بمثل ذلك فقال سراقه: قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار ستة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستفروا فتوضع عنهم جزية تلك السنة وكتب سراقه إلى عمر بن الخطاب بذلك فأجازه وحسنه وكتب لهم سراقه بذلك كتاباً.

فهذا مما يستأنس به على فكرة المسلمين إذ ذاك في أمر الجزية: قال أبو يوسف: إن الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ما خلا نصارى تغلب وأهل نجران خاصة والذي يجب عليه الجزية منهم الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ولا من مقعد لا مال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا مال له، وليس في مواشي أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة.

وقد قدر أبو يوسف الجزية ثلاث فئات (٥٨ درهماً) على الموسرين و (٢٤) على المتوسطين و (١٢) على العمال.

ثم قال أبو يوسف: وينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم.

أما نصارى بني تغلب فتؤخذ منهم صدقة المسلمين مضاعفة. هكذا فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد تكلم أبو يوسف على ما منح لأهل الذمة من الامتيازات في دينهم وكنائسهم وبيعهم، فقال: إنه كان قد جرى الصلح بين المسلمين وأهل الذمة في أداء الجزية على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى أن يحضنوا لهم دماءهم وعلى أن يقاتلوا من ناوهم من عدوهم وعلى أن يخرجوا بالصلبان في أعيادهم وعلى أن يذبو عنهم فأدوا الجزية على هذا الشرط وجرى الصلح بينهم على ألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة فافتحت الشام كلها والحيرة إلا أقلها على هذا، فلماذا تركت البيع والكنائس ولم تهدم. ثم اقتصر تاريخ ما أعطاه القواد لأهل الذمة في الأقاليم المختلفة من هذه الشروط وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه» وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند وفاته: أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

### المورد الثالث من موارد الخراج العشور:

لم تكن العشور من الموارد التي ذكرها القرآن الكريم ولكنها حدثت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إليه: إن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إليه عمر: خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً وليس فيما دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فيحسابه. وروي أن أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عسر من أهل الحرب. وبعث زياد بن حدير الأسدي على عشور العراق والشام. فصار ذلك سنة في المرور بأموال التجارة خاصة وما يرد منها من أهل الحرب وأهل الذمة سييله سبيل الخراج، أما ما يرد من المسلمين فيسيله سبيل الصدقات ولذلك إذا قال المسلم قد أدبت زكاة هذا المال الذي في يدي صدق في يمينه.

قال أبو يوسف: رأيت أن تولي العشور قوماً من أهل الصلاح والدين وتأمرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فلا يظلموهم ولا يأخذون منهم أكثر مما يجب عليهم وإن يمثلوا ما رسمناه لهم ثم تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر عليهم وهل يجاوزون ما قد أمروا به، فإن كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه وإن كانوا قد انتهوا إلى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك وأحسنت إليهم، فإتت متى أثبت على حسن السيرة والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدي بما تأمره به في الرعية يزيد المحسن في إحسانه ونصحه وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدي وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض بالقيمة.

### مصاريف بيت مال الخراج:

الخراج الذي يتكوّن مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث هو دعامة مالية الدولة ومصرفه المصالح العامة، لأنه حق للجمهور كله وهذه المصالح بحسب ما يرى الإمام وقد ذكر أبو يوسف بعضها لورودها في أسئلة الخليفة وهي:

#### أولاً - أرزاق القضاة والولاة والعمال:

قال أبو يوسف: فيجري على والي كل مدينة وقاضيا بقدر ما يحتمل وكل رجل تصيره في عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئاً إلا

والي الصدقة فإنه يجري عليه منها، فأما الزيادة في أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجري عليهم فذلك إليك، ومن رأيت أن تزیده منهم في رزقه زدته ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت؛ أرجو أن يكون ذلك موسعاً عليك وكل ما رأيت أن الله تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره فإني أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب.

وقد سأله الرشيد عن رأيه فيما يجري على القاضي إذا صار إليه ميراث من موارث الخلفاء وبنى هاشم من الذي يصير إليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم ومالهم فأجاب سلباً وقال: إنما يعطى القاضي رزقه من بيت المال ليكون قياً للفقير والغني والصغير والكبير ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه موارثه رزقاً ولم تزل الخلفاء تجري للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين، فأما من يوكل بالقيام بتلك الموارث في حفظها والقيام بها فيجري عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ما هم فيه فلا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والأمناء ويبقى الوارث هالكاً وما أظن كثيراً من القضاة والله أعلم ببالي بما صنع وكيفما عمل ولا يبالي أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث إلا من وفقه الله تعالى منهم.

ثانياً - أعطيات الجنود وهي مرتبات العسكر:

ولم يكن في حياة النبي ﷺ مرتبات معينة للجنود الذين كانوا يتألفون من جميع أفراد المسلمين. وإنما كانوا يأخذون مالهم في أربعة أخماس ما يغنمون وفيما يرد من خراج الأراضي التي أقيت في أيدي أهلها كأرض خيبر، ولما ولي أبو بكر رضي الله عنه أعطى الناس وسوى بينهم في العطاء قائلاً: هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة، فلما ولي عمر رضي الله عنه رأى في ذلك غير رأي أبي بكر وقسم العطاء مفضلاً للأسبق فالأسبق وهذا قوله بتصه: والله الذي لا إله إلا هو ما أحد إلا وله في هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدكم ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وتلاده في الإسلام والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وغناؤه في الإسلام والرجل وحاجته في الإسلام. بناء على هذه القواعد فرض العطاء فكانت المرتبات كما يأتي:

(١٢٠٠٠) درهم لأزواج النبي ﷺ ولعمه العباس.

(٥٠٠٠) درهم لمن شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار وألحق بهم الحسن والحسين.

(٤٠٠٠) درهم لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد وألحق بهم أسامة بن زيد.

(٣٠٠٠) لعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار كعمر بن أبي سلمة.

(٢٠٠٠) لأبناء المهاجرين والأنصار.

(٨٠٠) لأهل مكة .

(٤٠٠) و (٣٠٠) لسائر الناس .

(٦٠٠) و (٤٠٠) و (٣٠٠) و (٢٠٠) لנסاء المهاجرين والأنصار .

وكان يفرض لأمرء الجيوش والقرى في العطاء ما بين (٩٠٠٠) و (٨٠٠٠) و (٧٠٠٠) على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور وكان للمنقوس إذا طرحته أمه (١٠ دراهم) فإذا ترعرع بلغ به (٢٠٠) فإذا بلغ زاده .

وكان للعطاء ديوان تسجل فيه أسماء المرتزقين ويقبضون عطاءهم على رأس السنة حسبما هو وارد فيه والذي أوجد هذا الديوان هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ولما كثر الناس عن الحاجة واضطرتهم المدنية إلى أن يشتغل كثير من الأمة بغير الجهاد من الصنائع اقتصر الديوان على ما تقوم به حاجة الأمة من الجيش ، وكان بعض من ليس مرتزقاً في الديوان يدعوه حبه للجهاد أن يذهب مع الجيش فلا يمنع ويسمون هذا متطوعاً وكانوا كثيرين يلزمون الثغور ويخرجون مع الجيوش .

### ثالثاً - كرى الأنهار وإصلاح مجاريها :

وقال أبو يوسف رحمه الله : وإذا احتاج أهل السواد إلى كرى أنهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم ، وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج .

وأما الأنهار التي يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم ويساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء .

وأما البثوق والمسنيات والبريدات التي تكون في دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام ، فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء ، لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال ، لأن عطب الأرضين من هذا وشبهه وإتاما يدخل الضرر من ذلك على الخراج ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله يعمل في ذلك بما يجب عليه لله قد عرفت أمانته وحمدت مذهبه ولا تول من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل ولا يسمعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يضيع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تنفجر فتفرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم ، ثم وجه من يتعرف ما يعمل به وإليك في هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك

من العمل عليها مما قد يحتاج إلى العمل وما تفجر وما السبب في انفجاره ثم عامله حسبما يأتيك  
الخير عنه من حمد لأمره أو ذم وإنكار وتأديب .

رابعاً: حضر الترع بعد التثبيت من نفعها بواسطة من لهم بصيرة ومعرفة .

فإذا تبين الإمام ذلك أمر بحفر تلك الترع وجعل النفقة من بيت المال ولا يحمل النفقة على  
أهل البلد فإنهم إن يعمرها خير من أن يخربوها وإن يعزوا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا .

خامساً - الإجراء على المسجونين :

قال جواباً لسؤال الرشيد عنهم: لا بد لمن كان في مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه  
لا مال ولا وجه شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال من أي الوجهين  
فعلت، فذلك موسع عليك وأحب إلي أن تجري من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فإنه  
لا يحل ولا يسع إلا ذلك قال: والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن إليه حتى  
يحكم فيه فكيف برجل مسلم قد أخطأ وأذنب يترك يموت جوعاً وإنما حمله على ما صار إليه  
القضاء أو الجهل ولم تزل الخلفاء تجري على أهل السجون ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم  
وكسوتهم الشتاء والصيف وأول من فعل ذلك علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالعراق ثم فعله  
معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده .

قال أبو يوسف: فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم وصير ذلك دراهم تجري  
عليهم في كل شهر يدفع ذلك إليهم، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام  
والجلاوذة وولي ذلك رجل من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من في السجن ممن تجري عليهم  
الصدقة وتكون الأسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع  
ذلك إليه في يده، فمن كان منهم أطلق وخلي سبيله رد ما يجري عليه ويكون للأجراء عشرة دراهم  
في الشهر لكل واحد وليس كل من في السجن يحتاج إلى أن يجرى عليه وكسوتهم في الشتاء  
قميص وكساء، وفي الصيف قميص وإزار ويجرى على النساء مثل ذلك وكسوتهن في الشتاء  
قميص ومقنعة وكساء، وفي الصيف قميص وإزار ومقنعة وأغنتهم عن الخروج في السلاسل  
ويتصدق عليهم الناس فإن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطأوا وقضى الله  
عليهم ما هم فيه فحبسوا يخرجون في السلاسل يتصدقون وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا  
بأسارى المسلمين الذين في أيديهم فكيف ينبغي أن يفعل هذا بأهل الإسلام؟ وإنما صاروا إلى  
الخروج في السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع فربما أصابوا ما يأكلون وربما  
لم يصيبوا وإن ابن آدم لم يعر من الذنوب فتفقد أمرهم ومر بالإجراء عليهم مثل ما فسرت لك ومن  
مات منهم ولم يكن له ولي ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن فإنه بلغني

وأخبرني به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فمكث في السجن اليوم أو اليومين حتى يستأمر الوالي في دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكثرون من يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة فما أعظم هذا في الإسلام وأهله .

### المورد الثالث من موارد بيت المال الصدقات

وهي ما يؤخذ من المسلمين:

أولاً: من أنعامهم وهي الإبل والبقر والغنم على حساب معين في الفقه الإسلامي .

ثانياً: من نقودهم التي هي الذهب والفضة باعتبار ٥, ٢ من كل مائة .

ثالثاً: من أموال تجاراتهم ومنها ما يمرون به على العاشر يؤخذ منهم كذلك باعتبار ٥, ٢ من كل مائة .

رابعاً: ما يؤخذ من حاصلاتهم الزراعية وهي أعشار الأرض يؤخذ مما سقي بدون مؤنة العشر ومما سقي بمؤنة نصف العشر .

قال أبو يوسف رحمه الله: ومر يا أمير المؤمنين باختيار رجل أمين ثقة عفيف ناصح مأمون عليك وعلى رعيتك فوله جمع الصدقات في البلدان ومره فليوجه فيها أقواماً يرتضيههم ويسأل عن مذاهبهم وطرائقهم وأماناتهم يجمعون إليه صدقات البلدان فإذا جمعت إليه أمرته فيها بما أمر الله جل ثناؤه به فأنفذه ولا تولها عمال الخراج فإن مال الصدقة لا ينبغي أن يدخل في مال الخراج وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالاً من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ولا يسمع وإنما ينبغي أن يتخير للصدقة أهل العقاف والصلاح فإذا وليتها رجلاً ووجه من قبله من يوثق بدينه وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما ترى ولا تجر عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة .

### مصارف الزكاة:

الزكاة تصرف بالنص إلى ثمانية أصناف من الناس قال الله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله﴾<sup>(١)</sup> .

قال أبو يوسف: فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا (وخالف الحنفية في ذلك أكثر الأئمة)، والعاملون عليها يعطيهم الإمام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وقسمت بقية الصدقات بينهم للفقراء والمساكين سهم، والغارمون وهم الذين لا يقدر على قضاء ديونهم سهم وفي السبيل المنقطع بهم سهم، يحملون به ويعاونون. وفي الرقاب سهم، وسهم في إصلاح طرق المسلمين

(١) سورة: التوبة، الآية: ٦٠ .

ويقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة في أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على أهل مدينة أخرى، وأما غيره فيصنع به الإمام ما أحب من هذه الوجوه التي سمي الله تعالى في كتابه، وإن صيرها في صنف واحد ممن سمي الله تعالى أجزاء.

## ٦ - الأمين

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمي أباً وأماً ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ولابنه الحسن.

ولد (سنة ١٧٠) من الهجرة وولاه أبوه العهد (سنة ١٧٥)، وكان قائماً مقام أبيه ببغداد حينما سافر إلى خراسان، ولما مات الرشيد بطوس ببيع له في عسكر الرشيد بالخلافة ووصل الخير إلى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر في الخلافة إلى أن قتل في (٢٥ محرم سنة ١٩٨ - ٥ سبتمبر سنة ٨١٣) فكانت مدته أربع سنوات إلا أربعة أشهر تقريباً.

### الحال الداخلية لذلك العهد:

كانت هذه المدة التي وليها الأمين مملوءة بالمشاكل والاضطرابات بين الأخوين الأمين والمأمون وكادت الأمة تنهض بينهما ضياعاً وسبب ذلك ما فعله الرشيد من ولاية العهد لأولاده الثلاثة أحدهم بعد الآخر وقسمته البلاد بينهم كما قدمنا ونحن نبين كيف ابتدأت المشاكل وكيف انتهت ونبين آثارها في الأمة:

لما كان الرشيد بطوس جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهد من معه من القواد رسائر الناس أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون ولما علم الأمين وهو ببغداد مرض أبيه وأنه لعمري أرسل من يفيد الأخبار كل يوم وأرسل كتباً تسلم إلى من أرسلت إليه بعد وفاة الرشيد فلما توفي كان من تلك الكتب كتاب للمأمون يعزیه فيه عن أبيه ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله للأمين بالخلافة وللمأمون بولاية العهد والقاسم المؤتمن بعده. ومنها كتاب لصالح بن الرشيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الذين معه وهو الذي صلى عليه حين مات وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للأمين ثم المأمون ثم المؤتمن على الشريطة التي اشترطها الرشيد وأمره بالمسير إليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح وقال له في الكتاب وإياك أن تنفذ رأياً أو تبرم أمراً إلا برأي شيخك وبقيّة آبائك الفضل بن الربيع وفيه: وإن أمرت لأهل العكر بعتاء أو أرزاق فليكن الفضل بن الربيع المتولي لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحض من أصحاب الدواوين فإن الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور.